الجمهورية الجزائرية الشعبية الديمقراطية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة عبد الحميد بن باديس

كلية الأدب العربي والفنون

قسم الدراسات الأدبية

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر في الأدب المقارن والعالمي تحت عنوان :

صورة الأقوام غير العربية في كتاب "الحيوان" للجاحظ

من إعداد :

الطالبة : أن نفيسة

باشراف :

د. مسعودي فاطمة الزهراء

٢٠٢٣-٢٠٢٤

الدكتورة : مسعودي فاطمة الزهرة
كلية الأدب العربي و الفنون
جامعة عبد الحميد بن باديس
مستغانم

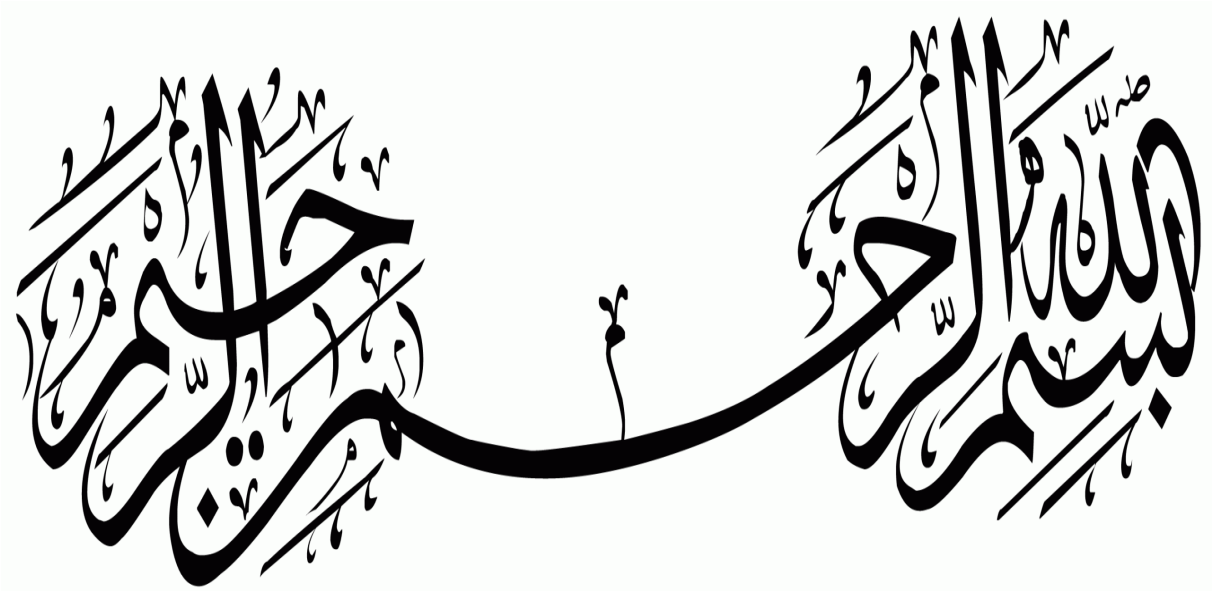
بسم الله الرحمن الرحيم

شكر و عرفان.

قال تعالى : (رَبِّ أَوْزِعْنِيَ أَنَ اَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنَ اَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ)

نبدأ بشكر لله وحمده كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه أن من علي بالتوفيق في إخراج هذا العمل إلى النور

كلمة شكر وعرفان ملؤها الاعتراف بالجميل لرئيس الجمهورية عبد المجيد تبون على إتاحته لي هذه الفرصة العظيمة للدراسة في أرض الشهداء و المجاهدين ،كما أخص بالشكر الأستاذة الدكتورة مسعودي فاطمة الزهراء على جملة النصائح والتوجيهات التي قدمتها لي خلال فترة إنجاز البحث .

دون أن أنسى كل من ساهم من قريب أو بعيد في إخراج هذا العمل إلى النور، إلى كل هؤلاء أتقدم بجزيل الشكر والعرفان.

إهداء

أهدي ثمرة جهدي هذا

إلى من كانا لي خير معين إلى من علماني

أن الأعمال الكبيرة لا تتم إلا بالصبر والعزيمة

والإصرار إلى والداي أطال الله بقاءهما، والبسهما ثوب

الصحة والعافية، ومتعني ببرهم وأعانني على رد إحسانهم إلي .

و إليك جدتي ... قطرة في بحرك العظيم... حبا وطاعة وبرا

يامن كان دعاؤها سر نجاحي، وحنانها بلسم جراحي ...

وإلى من ساروا معي نحو الحلم ... خطوة بخطوة

بدرناه معا ... وحصدناه معا .... وسنبقى معا ... بإذن الله

إلى من هم أغلى من روحي إلى إخوتي الأعزاء

المقدمـــــــة

المقدمـــــة

يعد علم الصورة (الصورولوجيا) أو الدراسات الصورائية أو الصورانية من الدراسات الحديثة نسبياً وهي من أحدث ميادين الأدب المقارن ، كما تعد البحوث المرتبطة بها من جديد المرحلة التاريخية ، و لمثل هذه البحوث أهمية خاصة؛ إذ تعد أحد المفاتيح لحوار الحضارات ؛ فدراسة صورة شعب ما في أدب شعب آخر إنما تدل على وعي للذات والعالم، كما تسهم في تعزيز التفاهم بين الشعوب وتساعد على نشر لواء الإنسانية ،وتهيئ خير السبل للتعاون الحق والتفاهم الصادق بين الشعوب عن طريق التعرف إلى الاتجاهات العامة والميول الفكرية المشتركة للعقل البشري . فضلاً عن أهمية الدرس النقدي لصورة الآخر في الأدب القومي، في تحسين أدوات تحليله وتقويمه فنياً.

ورغم ما أسلفناه من حداثة هذا الفرع من فروع الأدب المقارن وكون بداياته ترجع إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر إلا أنه ومن جهة أخرى ضارب بجذوره في عمق تراثنا القديم، إذ لم تكن الأمة العربية يوما أمة منغلقة على ذاتها وهو ما شكل بيئة خصبة لظهور هذا النوع من الدراسات و بالتحديد في العصر العباسي، الذي شهد فيه العرب أكبر انفتاح على الآخر واحتكوا فيه بغيرهم من الأمم إلى درجة الاختلاط فتعرفوا على ثقافتهم وعاداتهم ومعتقداتهم مما انعكس بدوره على الساحة الأدبية فأصبح الحديث عن تلك الأمم محط اهتمام أدباء الدولة العباسية ، ويعد عمرو بن بحر الملقب بالجاحظ من أبرز الكتاب الذين صوروا الأقوام غير العربية في مؤلفاتهم ومن أشهر الكتب التي تعرض الجاحظ فيها لدراسة الأمم الأخرى كتاب البيان والتبيين ، وكتاب البخلاء ، وأخيرا كتاب الحيوان الذي أفردناه بالدراسة والتمحيص نظرا لأهميته الكبيرة في تاريخ النثر العربي إذ يعتبر من أكبر الموسوعات العلمية والثقافية التي صورت لنا واقع ذلك العصر في مختلف أبعاده وعليه فقد كان هذا الكتاب محط دراستنا، و مذكرتنا الموسومة بـ: "صورة الأقوام غير العربية في كتاب الحيوان للجاحظ" ، رغبة منا في العودة إلى التراث و التعرف على الواقع المعاش في ذلك العصر و تشوقا منا إلى الاطلاع على موسوعة الجاحظ الثقافية

التي لم تقتصر فقط على دراسة عالم الحيوان و إنما تعدت ذلك بأميال لتصبح مرجعا أساسيا يصور الحياة في العصر العباسي من مختلف جوانبها السياسية والاجتماعية والثقافية.

.وقد أثار اطلاعنا على هذه الوثيقة التاريخية في أذهاننا عدة تساؤلات تمحورت في مجملها حول كيفية تعاطي ال"أنا" العربي المتمثل في شخص الجاحظ في هذه الدراسة مع "الآخر" الأجنبي ، وماهي الصورة التي تكونت في ذهنيته عن هذه الأقوام الدخيلة على المجتمع العربي؟ ، وهل كان للواقع السياسي والاجتماعي المعاش آنذاك تأثير على هذه الصورة أم لا ؟ ، وكيف تعامل المثقف العربي أنذاك مع هذا الإرث الثقافي الكبير الذي وقع بين يديه ؟.

و للإجابة على هذه التساؤلات فرضت علينا الدراسة خطة اشتملت على مقدمة ومدخل و فصلين و خاتمة وملاحق. وقد حاولنا خلال هذه الخطة الانتقال من الأعم إلى الأخص فبدأنا بمدخل عن علم الصورة عرفنا خلاله هذا العلم لغة واصطلاحا مقدمين خلال ذلك نبذة تاريخية عنه معرجين على ثنائية الأنا و الآخر التي شغلت الدارسين منذ الأزل أما الفصل الأول ففيه حاولنا أن نفهم الظروف الحياتية العامة في العصر الذي عاش فيه الجاحظ لذا تطرقنا فيه إلى لمحة عن العصر العباسي، و قيام الدولة العباسية و الحياة العباسية في مختلف جوانبها ، والانفتاح الثقافي الكبير الذي تميز به ذلك العصر معرجين على أكثر الأمم تأثيرا في الثقافة العربية ، أما الفصل الثاني والأخير فكان هو لب الرسالة وفيه حاولنا تكوين فكرة عن الصورة التي رسمها الجاحظ للآخر في هذا الكتاب.

و ختمنا بحثنا بخاتمة تضمنت أبرز النتائج التي توصلنا إليها من خلال بحثنا في هذا الموضوع وأخيرا وليس آخرا عززنا البحث بملحقين عرفنا خلالهما بالمؤلف "أبي عثمان عمرو بن بحر" الملقب بالجاحظ كما عرضنا فيهما تلخيصا مبسطا للكتاب .

المنهج

اقتضت الدراسة الاعتماد على المنهج التاريخي لجمع المادة التاريخية من مصادرها وذلك في ما يخص دراستنا للعصر العباسي بمختلف جوانبه الحياتية وكذلك في محاولة تتبع تاريخ نشأة وتبلور المنهج الصورائي أو ما يعرف بعلم الصورة كما اعتمدنا كذلك على منهج التحليل الكيفي وذلك في الجزء التطبيقي من البحث والذي تضمن الإجابة على إشكالية البحث الأساسية ، وهي كيف صور الجاحظ الأمم الأخرى في كتابه الحيوان ؟ .

المراجع

أما الأرضية التي أُسس عليها البحث فتمثلت في مجموعة من المراجع التي أولت عناية خاصة بتاريخ العصر العباسي ، وبعض مؤلفات الجاحظ التي تخدم موضوع البحث ، إضافة إلى بعض المراجع التي تهتم بعلم الصورة ومن اهمها :

- كتاب أبي عثمان عمرو بن بحر "الحيوان "
- كتاب أبي عثمان عمرو بن بحر "البيان والتبيين "
- كتاب أبي عثمان عمرو بن بحر "البخلاء
- كتاب امين احمد ضحى الإسلام
- كتاب الدكتور محمد سهيل طقوش تاريخ الدولة لعباسية
- كتاب شوقي الضيف تاريخ الأدب العربي
- كتاب سعيد عبد الفتاح عاشور و سعيد زغلول و عبد الحميد أحمد مختار عبادي، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية
- كتاب محمد غنيمي هلال الأدب المقارن
- كتاب دانييل هنري باجو الأدب العام و المقارن
- كتاب احمد حسن محمود احمد ابراهيم الشريف العالم الإسلامي في العصر العباسي دار الفكر العربي

أهمية الموضوع:

يعتبر كتاب الحيوان صدىً من أصداء عصر التدوين ألّف في لحظة محورية من تاريخ هذه الأمة يرى كثير من الدارسين أنها مازالت تتحكم فينا حتى اللحظة ففي ذلك العصر وضعت قوانين لغتنا وألفت أمهات كتبنا الفقهية .

ونظراً لكون الجاحظ أحد أبرز كتاب هذه المرحلة فإن دراسة كتبه ومؤلفاته تعتبر سبيلنا الوحيد للانتقال إلى تلك المرحلة ودراستها بشكل دقيق ، ورغم أن كتاب "الحيوان" كغيره من مؤلفات الجاحظ قُتل دراسة إلا أنني بالعودة إليه أردت معرفة كيف استفاد ذلك الجيل من الآخر دون الذوبان فيه وكيف حافظ العباسيون على هويتهم العربية بالرغم من هذا الانفتاح الكبير على الآخر الذي شهده عصرهم .

أسباب الاختيار:

من أبرز الأسباب التي جعلتني أختار هذا الموضوع مايلي:

- ❖ رغبتي في التطلع على هذا الموضوع وكشف مدى الأثر الذي نتج عن احتكاك العرب بغيرهم من الأقوام ومخالطتهم في عصر يعتبر العصر الذهبي للأمة الإسلامية ككل.
- ❖ محاولة زيادة مدونة البحث في مواضيع المثاقفة والاستفادة من الثقافات الأخرى.
- ❖ رغبتي في إثبات أنه يمكن أن نستفيد من ثقافة الغير دون التخلي عن ثقافتنا .
- ❖ محاولة إثبات أن النهضة العلمية لا تكون باستلهام كل ما جادت به الثقافة الغازية و إنما بمحاورة هذه الثقافة ومزجها مع التراث وصبغها بصبغة عربية خاصة.

الصعوبات والعراقيل:

تتمثل أبرز الصعوبات التي واجهتها خلال إعدادي لهذه المذكرة في:

- ❖ سعة الموضوع وحاجته للدراسة المكثفة .
- ❖ قلة البحوث والدراسات السابقة في هذا الموضوع فأغلب المواضيع المشابه اقتصرت على صورة الفرس دون غيرهم واتخذت من كتاب البخلاء مرجعا لا الحيوان.
- ❖ صعوبة الإحاطة بالموضوع من جوانبه المختلفة نظرا لضيق الوقت وطول المرجع الأساسي (كتاب الحيوان)الذي يتألف من 7 مجلدات كبيرة
- ❖ ضيق الوقت المخصص لهذا البحث خصوص بالنسبة لي كشخص يعمل بدوام يبدأ من 8 صباحا وحتى 4 مساء
- ❖ اضطراري لأخذ إجازة غير مدفوعة الأجر من عملي لكون مقر العمل في بلد مختلف عن البلد الذي ستجرى فيه المناقشة .

❖ مـدخل إلى علم الصــورة

- المبحـث الأول : تحديد المفــاهيم
  - المطلب الاول : تعـريف العلــم لـغة
  - المطلب الثاني : تعريف العلـم اصطـلاحا
  - المطلب الثالـث : تعريف الصــورة لغـة
  - المطلب الرابع : تعريف الصورة اصطلاحا
- المبحـث الثـاني: عـلم الصــورة
  - المطلب الأول: تعريف علـم الصورة
  - المطلب الثاني: نشأة علم الصورة
  - المطلب الثالث : جدلية الأنـا والآخر

❖ ***المبحث الأول تحديد المفاهيم***

- **العلم في اللغة**

العلم لغة مصدر من الفعل علم وهو إدراك الشيء على حقيقته كما أنه المعرفة واليقين وعلى هذا الأساس عرفته معظم المراجع اللغوية.

يقول ابن فارس مثلا : «العين واللام والميم أصل صحيح يدل على أثر بالشيء يتميز به عن غيره ومن ذلك العلامة وهي معروفة يقال علمت على الشيء علامة ، والعلم الراية والجمع أعلام والعلم نقيض الجهل ويطلق ويراد به المعرفة وسمي علماً لأنه علامة يهتدي بها العالم إلى ما قد جهله الناس فهو كالعلم المنصوب بالطريق »[1].

- **العلم اصطلاحا**

أما العلم في الإصطلاح فيمكن تقسيمه إلي :

- **العلم في اصطلاح القدماء :**

قال الراغب الأصفهاني في تعريف العلم في القرآن هو : ((إدراك الشيء بحقيقته وذلك ضربان ؛ أحدهما إدراك ذات الشيء والثاني الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له أو نفي شيء هو منفي عنه))[2]

وقال ابن عبد البر : ((حد العلم عند العلماء والمتكلمين في هذا المعنى هو ما استيقنته وتبنيته وكل من استيقن شيئاً وتبينه فقد علم)) [3]

وقال الجرجاني : ((العلم هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع وقال الحكماء هو حصول صورة الشيء في العقل))[4] .

[1] ابن فاس معجم مقاييس اللغة ت . عبدالسلام هارون دار الفكر ببيروت 1979ص ج 4 ص 109-110
[2] الأصفهاني المفردات في غريب القرآن ت محمد سيد كيلاني بيروت دار المعرفة 1938 ص 343
[3] ابن عبد البر جامع بيان العلم وفضله تحقيق أبو الأشبال الزهري دار ابن الجوازي ب .ت ص 787
[4] الجرجاني معجم التعريفات تحقيق عبد الرحمان عميرة بيروت عالم الكتب1407هـ ص 343

- **العلم في اصطلاح المحدثين**

أما العلم في اصطلاح المحدثين فهو مجموعة من النظريات والوقائع والحقائق بالإضافة إلى مناهج البحث المتواجدة في جميع المؤلفات العلمية ، كما يمكن تعريفه أيضاً بأنه نسق من المعارف العلمية المتراكمة أو عبارة عن مجموعة من القواعد والمبادئ التي من خلالها يتم شرح البعض من الظواهر والعلاقة القائمة فيما بينها.

- **الصورة اصطلاحا:**

يعد مصطلح الصورة من أكثر المفاهيم الأدبية والنقدية دورانا واستعمالاً في النقد الأدبي ، ومع ذلك لا يقف عند مرفإ معين يهدئ من حركة ترحاله بين الاتجاهات والحركات النقدية والأدبية، ولعل صعوبة تحديد مفهوم الصورة يرجع لكونها تسمح باستعمالها بمعنى عام مبهم جدا وواسع جدا وذلك بالنظر إلى هذا الاستعمال من منظور أسلوبي خاص وغير دقيق لأن استعمالها ولو في مجال البلاغة المحصور عائم وغير محدد بدقة[5].

وفي ظل هذا الغموض وعدم الدقة عانت الصورة اضطرابا في التحديد الدقيق حتى بدت تحديداتها غير متناهية وصار غموض مفهومها شائعا بين قسم كبير من الدارسين[6] وتعود أغلب جوانب صعوبة تحديد مفهوم الصورة إلى حمله لدلالات متعددة تختلف باختلاف المناهج والحركات النقدية التي تدرسه ، وعلى هذا الأساس نجد الصورة الفنية والصورة الفتوغرافية والصورة السينمائية والصورة الذهنية والصورة الأدبية –التي يهتم بها علم الصورة – وغير ذلك الكثير من المصطلحات التي تكاد تكون لا محدودة ، والتي تختلف باختلاف مجالها

العلمي .

[5] فرانسوا مورو: البلاغة مدخل لدراسة الصور البيانية، ترجمة: محمد الولي وعائشة جرير، إفريقيا الشرق- الدار البيضاء، ٢٠٠٣م، ص .١٥

[6] د. بشرى موسى صالح: الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، المركز الثقافي العربي- بيروت، ط-١ ١٩٩4م، ص.١

❖ ***المبحث الثاني علم الصورة***

- **مفهوم الصورة لغة :**

تنوعت مفاهيم مصطلح الصورة بحيث أصبحت تضم عدة دلالات فصورة الشيء عموما تعني ما يقابله أو مرآته في الواقع ، أما من ناحية التحديدات اللغوية فهي كثيرة ، فنجد في القاموس المحيط مثلا للفيروز آبادي "الصورة من الجذر اللغوي صور ، والصورة بالضم وجمعها صور ، والصيّر كالكيّس ، وقد صوره فتصور، وتستعمل الصورة بمعنى النوع والصفة وبالفتح صورة شبه حكة في الرأس حتى يشتهي أن يفلى " [7].

جاء لفظ الصورة في القرآن الكريم وذلك في إبراز قدرة الله جل جلاله وعظمته في خلقه من خلال قوله تعالى : (الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَّلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) ﴾)[8] .

و باختصار فإن لفظة الصورة في مجمل المعاجم العربية تعني صفة الشيء وهيئته أو شبيهه وجاء في لسان العرب في مادة (ص) (و) (ر) الصورة في الشكل والجمع صور وقد صوره وتصورت الشيء توهمت صورته فتصور لي والتصاوير: التماثيل[9]

وردت الصورة هنا بمعنى الهيأة أو الشكل ليتم التفريق هنا بينها وبين التصور الذي هو مرور الفكر بالصورة الطبيعية التي سبق أن شاهدها وانفعل بها ثم اختزنها في مخيلته .

ومن هنا تجد أن التصور عقلي وأما التصوير فهو شكلي لأنه يبرز الصورة إلى الخارج بشكل فني فالتصور إذن : هو العلاقة بين الصورة والتصوير وأدواته الفكر فقط ، وأما التصوير فأدواته الفكر واللسان واللغة.

---

[7] مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي القاموس المحيط مادة (صور) دارالجيل بيروت ط1 ص (548)
[8] القرآن الكريم سورة النبأ قراءة ورش عن ناقع الآية 7_8
[9] ابن منظور لسان العرب مادة صور مجلد 10 ط 1 دار الصبح بيروت 1968 ج 2 ص 492

وبهذا يكون قد اتضح الفرق الجوهري بين التصور والتصوير وأما في المصباح المنير فقد جاءت مادة (ص. و. ر): الصورة بمعنى التمثال وجمعها (الصور) مثل غرفة وغرف وتصورت الشيء مثلت (صورته) وشكله في الذهن .

وقد تطلق الصورة ويراد بها الصفة كقولهم: صورة الأمر كذا أي صفته ومنه قولهم: صورة المسألة كذا أي صفتها ، وارتبط أيضا مفهوم الصورة هنا بالشكل والذهن كما لوحظ سابقا.

وجاءت الصورة في المعجم الوجيز بمعنى: صوره أي جعل له صورة مجسمة وصور الشيء أو الشخص أي رسمه على الورق أو الحائط أو بآلة التصوير ، وصور الأمر: وصفه وصفا يكشف عن جزئياته[10] ، وهذا المفهوم أوسع من سابقيه حيث جعل الصورة في دائرة لا متناهية من الدلالات.

وشرح محمد التونجي في معجمه الصورة على أنها: التشبيه والتمثيل ، وهي تقابل المادة لأن الصورة إما تجسيد مادي كالصورة التي ينحتها النحات أو يرسمها الرسام وإما نفسي يتخيله الأديب في كتاباته وهذا المعنى أقرب إلى الصورة التقنية.

و من الضروري الإشارة إلى مادة (ص. و. ر) في معجم متن اللغة ، وهي كالآتي : الشكل ، الهيئة ،الوجه ، الحقيقة ،الصفة ، والنوع ، ج: صور وتكسر الهاء وصور الشيء من صاره إذا أماله ، ويميل هذا التعريف للصورة إلى الجانب الشكلي .

ومن هنا يمكن القول بأن مصطلح الصورة في حقله اللغوي متشعب وشائع وله مدلولات كثيرة.

[10] محمد التونجي المعجم المفصل في الأدب دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط2 1999ج1 ص 591

- **تعريف علم الصورة**

علم الصور أو الصورائية أو الصرولوجيا هو تلك الدراسات التي تتخذ من الصورة بأشكالها المتنوعة موضوعا لها [11] ، إذ تهتم بدراسة الصور الثقافية التي رسمتها الشعوب عن بعضها المنبثقة من تحت وطأة الغياب أو المنسرية من مسكوت عنه ويهتم برصد رؤى وانطباعات المجتمعات و نظرتها عن غيرها من الشعوب لتلك النظرة الناتجة عن معرفة عامة بل وسطحية أحيانا والتي غالبا ما تتشكل نتيجة لتكتل المفاهيم الصادرة عن مسلمات فكرية عميقة غير معلنة بالضرورة يمكنها أن تشكل إيماءة تجري أو تتساوق مع رؤية معينة وإدراك محدد بأطر تاريخية أو ثقافية أو اجتماعية تتخطى الزمنية ، وتأخذ الصورولوجيا على عاتقها مهمة رصد وتحليل ما يصوره الأدب في نتاجاته في لحظة اتصالية ما[12] ؛ ولذا تتمثل غاية الصورولوجيا أولا وقبل كل شيء في تبديد الآراء الخاطئة عن الجماعات الإثنية والعرقية واللغوية أو القومية [13]((حيث أنها تسعى للإمساك بالسمات المتوهجة للجماعات)) وعلى هذا الأساس يمكن أن يطلق عليها "الصورولوجيا المقارنة"[14].

وربما لهذا السبب يرى د. غسان السيد أن دراسات الصورة من الدراسات الأدبية التي راجت في وقتنا الحالي بسبب أهميتها في العلاقات بين الشعوب[15].

وبرغم من أن دراسة صورة الآخر من الدراسات الأدبيَّة المقارنة التي حظيت باهتمامِ غير قليلٍ من الباحثين في الغرب ؛ إذ أن التركيز على إشكاليَّة العلاقة يكاد يكون الهمَّ الأساس في تأمُّل الدرس المقارن ، إلا أنها بقيت قليلة في البلدان العربية ولا تحظى بالاهتمام الذي يجب أن تحظى به وخاصة في الفترة الراهنة وقد كانت المشكلة الرئيسة أمام هذا النوع من

---

[11] هنري باجو الصورية ترجمة معجب الزهراني مجلة نوافذ ع 71 1999 ص 133
[12] نفسه ص 160
[13] عبد النبي ذاكر أفق الصورولوجيا مجلة علامات النقد ع 51 2004 ص 28
[14] المرجع السابق ص 126
[15] السيد غسان 2007 صورة الغرب في الأدب العربي مجلة جامعة دمشق للعلوم الإنسانية م 24 ع 3-4 2008

الدراسات أنها لا تربط دراسة الصورة بالواقع التاريخي والثقافي للشعوب أو أنها تحول أحيانا إلى ملاحقة دقيقة لصورة الأجنبي في النص الأدبي الذي تهمل أبعاده الأخرى.

ويرى (د. محمد غنيمي هلال) أن هذا العلم قد مهد له في أوروبا تمهيداً طويلاً ولم يكن ليخرج إلى عالم الوجود لولا تطور النقد الأدبي الذي أخذ اتجاه آخر غير عرض النصوص وبيان صورها البلاغية وجودة صياغتها رغبة في استخلاص دروس عملية وقواعد عامة منها[16].

و أما (د. عبده عبود) فيرى أن هذه الدراسات اليوم أفضل بكثير من الماضي. فكما تراجعت دراسات التأثر والتأثير بفضل التناص والتلقي الإبداعي ازدهرت الصورائية ، إلا أن الكثيرين يقفون موقف التشكيك في شرعية هذا العلم ويعدونه ابنا لقيطا للأدب المقارن.[17]

وعموما تعد الصورولوجيا اتصالا مفتوحا أو تنافذا بين الشعوب أو مرايا تنعكس عليها سيماء الشعوب وسماتهم المتوهجة وذلك لقدرة الصورة على عكس ملامح الشعوب وثقافاتهم وآدابهم مما يعمق المعرفة بينها ويذيب الصور النمطية التي كللت بها بعض التصورات – خاصة تلك الصادرة عن رؤى الاحتلال على اختلاف جنسياته – عن الشعوب التي وضعت في خانة ما تم التواطؤ على تسميتها ب "شعوب العالم الثالث" وبالتالي فقد عدت الصورولوجيا من قبل بعض الأصول الأدبية والذاتية المحايدة بمثابة مبحث يستهدف أولا وقبل كل شيء تبديد الآراء الخاطئة عن الجماعات الإثنية والعرقية واللغوية والقومية [18].

ومن النقاد الذين عرفوا الصورولوجيا تجد "بيير رونيل" فيقول أنها علم جديد أفضت إليه دراسة محكيات الرحلة [19] ، وسمى "هنري ياجو" هذا العلم : الصورولوجيا الأدبية وسعى إلى تخليصه من التشابك مع علوم أخرى غير الأدب كالسيسيولوجيا ، والأنثروبولوجيا، ،

---

[16] محمد غنيمي هلال الأدب المقارن نهضة مصر للطباعة ط2008 9 ف 7 ص 420

[17] الفيروزي الآبادي 1999 القاموس المحيط ط6 ص385

[18] سعيدة بشار محاضرات في علم الصورة ب .ت ص 2

[19] المرجع نفسه ص 3

وغيرها من العلوم ، فيقول: الصور ولوجيا هي دراسة الأجنبي في أثر أو أدب ما [20] ؛ ويفهم من ذلك أن ما يعني الدارس في هذا الميدان هو النقل الأدبي للصورة أي أدبيتها وقنيتها ، وهذا ما لا يهتم به عالم الاجتماع أو المؤرخ [21].

وهكذا فالصورة الأدبية هي مجموع الأفكار والمشاعر حيال الأجنبي التي تتخذ في خضم التكوينين الأدبي والاجتماعي[22]

وقد أجمعت كتب الأدب المقارن على صحة انتماء صورة أو صور شعب أو شعوب في آداب الشعوب الأخرى إلى الدرس المقارن سنة 1930 ، وقد قدم اسكولي رسالة بعنوان "بريطانيا العظمى أمام الرأي العام الفرنسي في القرن 17م ، وفي سنة 1947 قدم جان ماري كاري رسالة بعنوان الكتاب الفرنسيون والسراب الألماني 1800- 1940 ، وجاء بعده ميشال كادو برسالة عنوانها "صورة روسيا في الحياة الثقافية الفرنسية" وكانت الرسالة التي قدمها ماريوس غوبيار أكثر وضوحا وتركيزا ؛ إذ عمقت هذا الاتجاه بصورة بريطانيا العظمى في الرواية الفرنسية من 1914 إلى 1940 ، ومنذ سنوات الستينات أصبحت مثل هذه المواضيع حول صور الشعوب لدى الشعوب الأخرى رائجة في الجامعات الفرنسية ومعترفا بها في البحث الأكاديمي.

---

[20] نوافل يونس الحمداني الصورولوجيا في السرد الروائي عند مهدي عيسى الصقر مجلة ديالي م 1 ع 55 2012 ص 35

[21] محمد الداهي صورة الأنا والآخر في السرد رؤية للنشر والتوزيع مصر 2013 ص 06

[22] سعيدة بشار محاضرات في علم الصورة ص 3

- **أقسام الصورة**

تنقسم صور الشعوب إلى قسمين:

1 - الصورة الأولى تتمثل في تقديم صورة شعب في أدبه ولغته مثل [صورة الفرنسيين في أدبهم أو صورة المرأة في الأدب المصري أو الأدب الجزائري أو صورة الزنجي في الأدب المصري (...) فهذا النوع من الدراسات لا يتعدى الإطار القومي واللغوي] [23]

2 - أما النوع الثاني فيتمثل في تقديم صورة شعب في أدب شعب آخر يختلفان في اللغة [كصورة الجزائر في الأدب الفرنسي الشارل تيار Charles Tailliart و كصورة الإنجليز وطباعهم في أدب فولتير] . [24]

يمكن أن يساهم هذا الصنف الثاني من الدراسات في محو الصور النمطية المترسبة في مخيال الشعوب وبالتالي التمكين للتقارب الإنساني بينها وهذه القيمة أصبحت أكثر من ضرورية خصوصا في المرحلة التاريخية التي يمر بها العالم حاليا ، وقد سمح التقدم التكنولوجي بإضافة وسائل جديدة للتعارف بين الشعوب منها: الأفلام والسينما والإذاعة فضلا عن وسائل التواصل الاجتماعي كالفايسبوك والتويتر ... ، بالإضافة إلى الوسائل المعروفة سابقا كالكتب والرحلات . [25]

---

[23] أغامير محمد صورة الجزائر في مخيال الآخر (لدى الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر) رسالة دكتورا ص 46

[24] نفسه ص 47

[25] سعيدة بشار محاضرات في علم الصورة ص 4

- **نشأة علم الصورة**

ظهرت دراسة الصورة في أواخر القرن الثامن عشر وازدهرت ونمت وتطورت في القرن التاسع عشر والعشرون فقد كانت دراسة الصورة مرافقة للاستعمار الغربي الأوروبي ومن إفرازات الأدب المقارن خلال هذه الفترة ويعود سبب ذلك إلى اكتشاف أماكن جغرافية جديدة عند الشرق مما سمح للأدباء الغربيون بالكتابة حول المستعمرات الجديدة كالتغني بالأماكن الجغرافية كجمال الصحراء وغيرها من المواضيع إضافة إلى دراسة ذلك الأدب الشرقي ومقارنته بالأدب الأوربي الراقي وتناول ثقافة ذلك المجتمع في الأدب الأوروبي ومكوناته الاجتماعية والطبقية بالسخرية والدونية.

ويعتبر كتاب «عن ألمانيا » ل"مدام دي ستايل" أول أثر أدبي يخطو في رحاب هذا المجال وقد أسهم هذا الكتاب في تقديم صورة إيجابية عن الشعب الألماني كما أسهم في التعريف بالثقافة الألمانية لذا يعتبر هذا الكتاب بداية للدراسات الصورولوجية ، تقول ماجدة حمود: «وهكذا كانت محصلة الرحلة التي قامت بها مدام دو ستايل إلى ألمانيا كتابا وضعت له عنوانا بسيطا هو ألمانيا سعت فيه إلى تصحيح ما في أذهان الفرنسيين من صور مشوهة عن الألمان وبلادهم وثقافتهم لهذا بإمكاننا أن نعد هذا الكتاب بداية لما يعرف بدراسة صورة الآخر الأدبية (الصور ولوجيا) ..» .[26]

و لم يكن كتاب مدام دو ستايل حسب سعيد علوش العمل الوحيد الذي ساهم في ظهور هذا العلم بل هناك عوامل عديدة لعل أبرزها الرحلات التي كان يقوم بها الكتاب الفرنسيون إلى الشرق وأعمال المستشرقين ، ورغم استفادة فرنسا من كتابات مدام دو ستايل عن ألمانيا فإنها كانت تلاحق في نفس الآن صدى ونجاح كتابها في إنكلترا وأوروبا ومهتمة باستلهامات رومانسيتها للشرق الميثي بكل جغرافيته المختزلة في الألوان

[26] ماجدة حمود صورة الآخر في التراث العربي الدار العربية للعلوم بيروت 2010 ط1 ص9

والمشارب ، وقد كانت سيطرة رحلات الكتاب الفرنسيين وأعمال المستشرقين مسيطرة على الخيال الفرنسي».[27]

أما البداية الفعلية لهذا الميدان فقد كانت على يد ثلة من الدارسين منهم جورج اسكولي G. Ascoli جان ماري كاريه J. M. Carre ماريوس فرانسوا غوبارGuyard .. ، وغيرهم ممن تركو أعمال ثرية في هذ المجال ويمكن أن نذكر على سبيل التمثيل لا الحصر بعض الدراسات الصورية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وبدايات العشرينيات من القرن الماضي والتي عدت دراسة الصورة ضمن حقل الأدب المقارن و منها :

- رسالة أندرية مونشو ألمانيا أمام الآداب الفرنسية من عام 1814 إلى عام 1835 تولوز (1953) ،
- ورسالة ماريو - فرانسوا غويار صورة بريطانيا العظمى في الرواية الفرنسية 1914-1940 ديدييه (1954)
- ورسالة رينيه شوفال (ألمانيا) والحرب .. 1963
- ورسالة ميشيل كادو (صورة روسيا في الحياة العقلية الفرنسية 1856-1839- فايارد (1967)

وبعض الرسائل الأخرى التي أثرت المكتبة الأدبية في هذا المجال.[28]

ورغم الأهمية العلمية الكبيرة التي يتسم بها هذا العلم إلا أن دراسة الصورة لدى بعض الدارسين والباحثين الغربيين لم يكن اعتباطيا وإنما كان لخدمة مصالح إمبريالية سخرت الكتابة الأدبية لتصوير صورة الأجنبي تصويرا فنيا وبلاغيا في صورة دونية ومتخلفة تمثل النزعة الاستعلائية لدى "الأنا" الأوروبية المتمركزة حول ذاتها وذلك لتمرير أنساق ثقافية غربية تتكرس لدى سكان المستعمرات الشرقية.

[27] سعيد علوش مدارس الأدب المقارن دراسة منهجية مركز الثقافة العربي ط1 1987 ص 58

[28] دانييل هنري باجو الأدب العام المقارن ترجمة غسان السيد د. اتحاد كتاب العرب ط 1 1998 ص 85

يتحدث محمد غنيمي هلال ؛ عن هذا الصنف في الدراسات الأدبية بقوله هذا أحدث ميدان من ميادين البحث في الأدب المقارن لا ترجع أقدم البحوث فيه إلى أكثر من نحو ثلاثين عاما ولكنه – مع حداثة نشأته – غني بالبحوث التي تشير بأنه سيكون من أوسع ميادين الأدب المقارن وأكثرها روادا في المستقبل [29] ، وهو أيضا أحد الأنشطة المفضلة (للمدرسة الفرنسية) في الأدب المقارن حيث بدأت هذه الدراسة مع جان –ماري كاريه ثم أخذها ماريو – فرنسوا غويار ودافع عنها ونشرها في الفصل الأخير من [30] كتابه الصغير ضمن سلسلة (كوسيج- ماذا أعرف؟)عام (1951م) الأجنبي مثلما نراه ومن ثم توالت الدراسات في هذا النوع وأخذ يتطور بشكل سريـع .

[29] - محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن ص.419

[30] دانييل هنري باجو: الأدب العام المقارن ص86

- **جدلية الأنا والآخر**

لقد حظيت جدلية الأنا والآخر بمكانة هامة في فكر النهضة الأدبية الحديثة ، ويعد هذا الموضوع من الموضوعات التي أخذت جزءاً كبيرا من اهتمام الدارسين على اختلاف تخصصاتهم ومشاربهم الفكرية منذ الأزل حيث نجد أن هذا الموضوع طرح في الدراسات القديمة وخاصة الدراسات اليونانية التي قامت على أن الإنسان مركز الكون[31] ، كما شغلت الذات الإنسانية بما فيها من غموض وتنوع عددا من المفكرين والفلاسفة اليونان [32]، ومن هنا تشكلت ثنائية الإنسان والطبيعة لديهم ومن ثم تتابعت التطورات في هذه العلاقة حتى وصلت إلى قمتها في أن (الأنا) من يتحدث اليونانية والآخر من يتحدث غيرها ، وبعد ذلك انتشرت هذه الثنائية عند الأوروبيين الذين ساروا على نهج اليونان في التمييز بين الأنا والآخر من حيث الديانة فقد ميزوا بين المسيحي واليهودي ثم يأتي التطور بعد ذلك ويتم الحديث عن ثنائية الشرق والغرب.

وعموما فإنّ علاقات الأنا/الآخر تطرح نفسها على الفكر في صورة علاقات جدليّة.، ولكنّ هذه الجدليّة معقَّدة أو مُركَّبة وليست بسيطة كما يُظنّ ، ومعنى كونها جدليّة ابتداءً أنّ أيّاً من حدّيْها لا يتحدّد بذاته أي لا يكتسب ماهيةً ذاتية تأتيه من ذاته بالتِّلقاء وبمعزلٍ عن غيره أو عن خارجه؛ بل إنّ الواحد منهما يتحدّد في سياق علاقته بغيره على نحوٍ يكون فيه كلٌّ منهما " أناً" و"آخر" في الوقت عينه أو قُل - للدّقّة - أناً بالنّسبة إلى نفسه وآخر بالنّسبة إلى غيره.

إنّ معنى كلٍّ منهما متولِّدٌ بالضّرورة من تلك العلاقة الأفقيّة التي تنتسج بينهما؛ وذلك يحْدُث على نحوٍ يمتنع معه - بل يستحيل - إنتاج أيّ تعريفٍ (تحديدٍ) ما هويّ لهما من ذاتيْهما أي من خارج نطاق تلك العلاقة الجدليّة وعليه لا يمكن أن ننظر إلى الآخر بمعزل

[31] برتراند رسل حكمة الغرب ترجمة فؤاد زكريا عالم المعرفة 1978ج1 ص 43
[32]ميشيل فوكو الإنهمام بالذات ترجمة محمد ازويته دار افريقيا الشرق للنشر المغرب 2013 ص 32

عن الأنا ولا العكس وعليه يمكن القول أن الحديث عن الآخر يعني اكتشاف الذات وعلاقة هذه الذات مع الآخر سياسيا واجتماعيا وحضاريا وثقافيا وهذه العلاقة قائمة على أساس أن الذات هي المكون الأساسي في حركة الفكر و الثقافة بشكل عام وهي الأصل ، وهي الصواب ، والأخر هو مجرد ظل لهذه الذات ، وهو فرع عنها ، وهو الخطأ لكل تصوراتها ، وتظل العلاقة بين الأنا والآخرة علاقة جديلة افتراضية ، فقد تكون الأنا على حساب الأخر ، أو إلغاء الآخر لصالح الأنا ، وهذه العلاقة قائمة على ثنائية الأشياء ، وعلاقة التضاد القائمة بينهما ، واستحالة الدمج بين هذه الثنائيات ، مثل الحياة و الموت ، والخير والشر ، والصواب والخطأ والذكورة والأنوثة ، إلى غير ذلك من العلاقات الثنائية والضدية التي تحكم منطق الأشياء.

والصراع بين الأنا والأخر صراع طويل يرتد إلى البدايات الأولى لوجود الإنسان على هذه البسيطة ،ويدخل في أخصّ العلاقات الإنسانية كما يبدو ذلك واضحا في الصراع بين الأخوين قابيل وهابيل ، وقد تقترب هذه الغيرية أو تبتعد بين الأطراف ، ولكنها لا تلغى بل تبقى قائمة لأن العلاقات الإنسانية بطبيعتها قائمة على أساس التغاير لا التمازج ، وفقا للمصالح الذاتية و الاعتبارات الخاصة التي قد تقترب أو تبتعد من مصالح الآخرين واعتباراتهم الخاصة ، وقد عبر الشاعر الألماني غوتة عن ذلك وهو يتحدث عن ذاتية اللغة الألمانية بالنسبة له ، وغيرية اللغات الأخرى ، يقول :أنا أحب الألمانية ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن أحب الفرنسية ، ولكني أفهم حقيقة أن الفرنسي يحب الفرنسية ويعيشها ، ولا يمكن أن يحب الألمانية كما يحب لغته القومية .

وعادة ما ينظر الأنا إلى نفسه على أنه الأكمل و الأصوب و الأفضل والأخر هو الناقص والخاطئ والأسوأ وهذه النظرية العدائية أو الضدية بين الأنا و الأخر هي مصدر تعدد الأنا والآخر في مجالات السياسة والفكر والفلسفة والأدب ..... وإلى غير ذلك من مجالات الحياة

الفصـــــــل الأول

❖ الفصل الأول الانفتاح الحضاري في عصر الجاحظ

- المبحـــــــــــث الأول العصر العباسي
  - المطلـــــــــــب الأول الحياة السياسية
  - المطلـــــــــــب الثاني الحياة الاجتماعية
  - المطلـــــــــــب الثالث الحياة الفكرية

- المحـــث الثاني : أكثر الحضارات تأثيرا في عصر الجاحظ
  - الحضارة الساسانية
  - الحضارة الإغريقية
  - الحضارة الهندية

- **العصر العباسي:**

من بين الدول الإسلامية التي سطرت اسمها في التاريخ الإسلامي تأتى الدولة العباسية لتعتلي ذروة سنامها، فهي أطولهم عمراً، وأعظمهم مساحة، وأغناهم بالأحداث ؛ لذلك لم يكن غريباً أن يجعل منها الكثير من الباحثين قبلتهم، فيولوا وجوههم شطرها ، ولم تلق فترة من فترات التاريخ الإنساني على امتداد عمر الزمان من الاهتمام والدراسة والتحليل مثلما لقيت فترة الدولة العباسية، كما لم تحظ فترة مثلها بهذا الكم الهائل من المؤلفات التي دارت حولها أو غاصت فيها، وليس هذا بالأمر المستغرب إذا علمنا أنها تغطي زمنياً ما يزيد عن ثلثي التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى .

إذ لم يكن قيام الدولة العباسية مجرد بَيعة خليفة دون آخر، أو انتقالاً للحكم من الأمويين إلى العباسيين في حكم المسلمين، بل يعتبر هذا الحدث أكثر من مجرد تغيير في الأسرة الحاكمة ؛ إذ كانت الثورة العباسية وما نتج عنها من تغيير جذري في المجتمع الإسلامي -نقطة تحول هامة وفاصلة في هذا المجتمع تركت بصمة في جميع مناحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية بل وحتى الفكرية[33]، مخلفة عصر يعتبر أطول وأقوى العصور في تاريخ الأدب العربي حيث شهد قيام واحدة من أخصب فترات ازدهار الحضارة العربية وأكثرها نتاجا أدبيا وعلميا حتى سمي هذا العصر بعصر التدوين ، بل وذهب بعض الدارسين من بينهم الجابري إلى أن ذلك العصر شكل نقطة محورية مازالت تتحكم فينا حتى اللحظة ؛ فاللغة التي نتكلمها وضعت قوانينها في ذلك العصر والفقه الذي يدين الناس به وضعت كتبه وعرف رجاله في تلك الفترة فهو العصر الذي عاش فيه الإمام الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو حنيفة النعمان والأصمعي ، والخليل الفراهدي ، وحماد الراوية ، وغيرهم الكثير من رجال العلم واللغة الذين مازلنا ندين لهم حتى اللحظة بجل ما نعرف ؛ ونتيجة لما سبق كان من الطبيعي أن يحظى حقل التاريخ العباسي في العالم العربي بكم هائل من الدراسات والبحوث ، ولا شك

[33] الدكتور محمد سهيل طقوش تاريخ الدولة لعباسية دار النفائس الطبعة السابعة 1430هـ 2009م الصفحة رقم 7

أن هذه الدراسات ساهمت بشكل كبير في جعل المدرسة التاريخية الخاصة بالتاريخ العباسي واحدة من أغنى وأهم المدارس التاريخية في عالمنا العربي

وعموما يطلق اسم الدولة العباسية أو الخالفة العباسية أو العباسيين على ثالث خلافة إسلامية في التاريخ و ثاني سلالة إسلامية حاكمة وهي تلك الفترة الممتدة ما بين **(750م/ 132ه) و (1258م/ 656ه)** والتي استطاع العباسيون فيها أن يزيحوا بني أمية عن دربهم ويستفردوا بالخلافة ، وقد قضوا على تلك السلالة الحاكمة و طاردوا أبناءها حتى قضوا على اغلبهم و لم ينج منهم إلا من لجأ إلى الأندلس وكان من ضمنهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم فاستولى على شبه الجزيرة الأيبيرية في سنة 1029م.

وقد سميت الدولة العباسية نسبةً إلى العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، حيث استخدم العباسيون هذا الاسم لإظهار ترابطهم وارتباطهم بعائلة النبي صلى الله عليه وسلم، واعتبروا ذلك مصدرًا لشرعيتهم وسببا لتأييدهم من قبل الناس ، ومن خلال هذا الاستخدام تم تمييز الدولة العباسية عن الدولة الأموية السابقة وأثبتت شرعيتها واستمراريتها كخلافة إسلامية جديدة.

و قد اعتمد العباسيون في تأسيس دولتهم على الفرس وغيرهم من الموالي الناقمين على الأمويين الذين حرموهم من المساواة مع العرب[34] ، واستبعدوهم عن مناصب الدولة والمراكز الكبرى، حيث انتقلت الدعوة الشيعية من الفرع العلوي إلى الفرع العباسي بقيادة محمد بن علي بن أبي طالب و خلفه ابنه أبو هاشم بعد مقتل الحسين في مدينة كربلاء ، وحينما عرف الخليفة هشام بن عبد الملك بدعوته السرية قام باستدعائه و أبدى له كرمه لكنه يقال إنه وضع له السم أثناء ذهابه إلى الحميمة ـــ وهي إحدى القرى الموجودة في جنوبي فلسطين ـ حيث أن محمد بن علي بن أبي طالب كان يقيم فيها منفيا لكنه قبل موته عهد بالدعوة إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس و ذكر له جميع أسرار الدعوة " .[35]

[34] شوقي ضيف تاريخ الأدب العربي الجزء الثالث دار المعارف المصرية للنشر الطبعة الأولى1960-1995 الصفحة10

[35] البخلاء تحقيق العوامري و علي الجارم دار الكتب بيروت 1938 ص .12

و من هنا تتدرج لدينا المراحل الأولية لبناء الدولة العباسية و نخص بالذكر العصر العباسي الأول و الذي يصفه الكثير من المؤرخين " بالعصر الذهبي " وتدل هذه التسمية إلى انتعاش الآداب و العلوم ، و بلوغ ذروتهما من التطور ، كما يسمى أيضا بعصر القوة ؛ فقد تميز ببسط الدولة سيطرتها على كافة أراضي الخلافة الإسلامية الممتدة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب بغض النظر عن بعض الثورات أو الانتفاضات الفاشلة هنا أو هناك ، كما تميز هذا العصر بازدهاره العلمي والاقتصادي والتجاري فقد أولى الخلفاء العلم أو العلماء كل الأهمية وشجعوهم على الاختراعات والاكتشافات ، وهذا ما سنتطرق إليه لاحقا ، كما قاموا بنقل كتب الفلسفة اليونانية القديمة إلى اللغة العربية فأخذوا أحسنها و زادوا عليها ، وهذا على سبيل المثال الأمر الذي أدى إلى مواكبة كل جديد من كل ناحية." [36]

امتد العصر العباسي من سنة ١٣٢ هـ حتى سنة ٦٥٦ هـ، وقد تخلل ذلك العصر فترات قوة وفترات ضعف، كما أن السمة الغالبة لعصر الدولة العباسية كانت ظهور دول إسلامية مختلفة في أنحاء متفرقة من العالم الإسلامي ، بعضها يدين بالولاء للخلافة العباسية ، وبعضها الآخر مستقل عنها تماماً، بل ومعاد لها أحياناً، وللكثير من هذه الدول فتوحاتها وحركاتها الجهادية الخاصة، وتعتبر الفتوحات التي باشرها الخلفاء العباسيون أو أمراؤهم محدودة جداً مقارنة بالعصور السابقة لهم أو اللاحقة عليهم، إلا أن العباسيين نجحوا في المحافظة على الدولة الإسلامية، وحدودها في غالب الأحيان، وهذا بالطبع استلزم منهم حروباً وقائية ضد الروم بالدرجة الأولى، وضد غيرها من الدول المجاورة[37].

و من خلال هذا البحث سنعرض أهم المراحل و الخطوات التي خطاها العباسيون لبناء دولتهم محاولين التعمق أكثر لدراسة الأحداث المتوالية في هذا العصر في مختلف مجالاته سواء كانت سياسة أم اجتماعية أم ثقافية

[36] [36] الدكتور محمد سهيل طقوش تاريخ الدولة لعباسية ص 25

[37] عبد العزيز ابراهيم العمري الفتوح الإسلامية على مر العصور دار إشبيليا للنشر والتوزيع 1421 هـ ص 191

- **الحياة السياسية:**

بعد النجاح الذي حققه العباسيون في معركة الزاب [38] (سنة 132هـ /749م) توج العباسيون انتصارهم هذا بإعلان أبي العباس أول خليفة عباسي في مسجد الكوفة بعد أن اخذت له البيعة الخاصة من القواد والدعاة والبيعة العامة في مسجد الكوفة الكبير، و كان اعتلاؤه سدة الخلافة، إيذاناً ببداية مرحلة سياسية جديدة من مراحل التاريخ الإسلامي، شهدت فيها الدولة الإسلامية تغيرات جذرية رغم بقاء نظام الحكم كما عرفه الأمويون ومارسوه، نظاماً ملكياً وراثياً، صاحبه كثير من مظاهر الترف التي حفلت بها قصور العباسيين .[39]

إلا أن هذا النظام اتخذ منحىً جديداً في مساره الحركي من ناحية العلاقة بين فئات المجتمع الإسلامي، وذلك بفعل اعتماده القوي على العناصر الإسلامية غير العربية التي اندمجت في هذا المجتمع، فلا يخفى علينا كيف هيأ العباسيون لقيام دولتهم عن طريق الدعوة السرية لإمام هاشمي يخلص الموالي من فرس وغير فرس من حكم بني أمية الجائر محققا لهم المساواة المشروعة - بحكم الإسلام - بينهم وبين العرب في جميع الحقوق السياسية [40]

وعلى الرغم من احتفاظ العرب بمنصب الخلافة وبالكثير من المناصب القيادية ؛ فإن العصر العباسي قد اتسم بالطابع الفارسي – خاصة في بداياته - مع احتفاظه بالسمة العربية، وهو ما أدى إلى حدوث تمازج سياسي ، وتمازج حضاري ، حيث نتج عن الأول تغلغل النفوذ الفارسي في إدارات الدولة ، فقد كانت أعلى المناصب وأكثرها في أيدي الفرس ، وكان منهم أكثر الوزراء والقواد ، غير أن العباسيين نكبوهم نكبات متوالية ، على نحو ما هو معروف عن نكبة البرامكة ونكبة بني سهل .

ونشب من جراء ذلك عداء شديد بين الفرس والعرب ، فالعرب يريدون استرداد مجدهم في العصر الأموي والفرس لا يكتفون بما لهم من مجد حادث في الدولة ، وكأنهم يريدون أن يستعيدوا مجد دولتهم الساسانية القديمة ويمحقوا العرب محقا ، وقد كان من تجليات هذا

---

[38] وهي المعركة التي وقعت بين الامويين والعباسيين على الزاب الاعلى الذي يقع بين الموصل واربيل ، انظر عبدالله بن شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي ، معجم البالدان (بيروت : 1955) 124/3 .

[39] الدكتور محمد سهيل طقوش تاريخ الدولة لعباسية ص256

[40] شوقي ضيف تاريخ الأدب ج 4 دار ذوي القرى للنشر العراق ط2 1327 هـ ص 9

العداء ظهور تيار شعوبي بغيض رافقه تيار إلحاد وزندقة لا يقل عنه عنفاً ، لهدم الإسلام والعروبة جميعاً .

وفي أثناء ذلك كانت الثورات مضطرمة في شرق الدولة ، وكلما خمدت ثورة اندلعت أخرى ، وقد كانت ثورة بابك الخرمي آخر هذه الثورات و أخطرها على الدولة العباسية ، حيث استمرت نحو عشرين عاماً تقض مضاجع القواد والخلفاء ، وكلفت الدولة كثيراً من الجيوش والأموال إلى أن سحقتها المعتصم وقواده سحقاً.[41]

في حين نتج عن الثاني (التمازج الحضاري) نشوء ثقافة جديدة قائمة على الثقافة الفارسية كإطار عام ضمن حيثيات عربية وكان ذلك تحولا هامّاً في تاريخ الدولة العباسية، فقد كانت تعتمد كل الاعتماد على الفرس وكانوا أصحاب مدنية وحضارة فبثوهما في الحياة العربية، وأعدوا لنهضة حضارية واسعة تستقى منهم ومن موارد الإسلام والعروبة ومن الثقافات الأجنبية المختلفة ، وخاصة من الثقافتين اليونانية والفارسية . [42]

ومهما يكن من أمر فإن العباسيين أعطوا لأنفسهم الشرعية في الوصول إلى الحكم بكونهم الأحق بوراثة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فهم أحفاد العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم - والعم شرعاً بمقام الوالد - فهم بذلك أحق بالوراثة من غيرهم ، وقد اكد الخليفة العباسي الاول ابو العباس ذلك بقوله :

(الحمد لله الذي اصطفى الاسلام لنفسه وكرمه وشرفه وعظمه واختاره لنا وايده بنا وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوام به والذابين عنه والناصرين له وألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها وخصنا برحم رسول الله وقرابته وأنشأنا من آبائه) [43] **وتلا قوله تعالى : { إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} [الأحزاب: 33]** [44] مهاجماً بذلك العناصر المعارضة التي بدأت تتحرك بعد نجاح الثورة العباسية من أهل الشام ،

---

[41] شوقي ضيف العصر العباسي الثاني ص 10

[42] نفسه ص 11

[43] ابو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ت: محمد ابو الفضل ابراهيم دار المعارف مصر ط4 1965 ج7 ص 425

[44] سورة الاحزاب ، الآية 33 .

ومؤكداً على حق العباسيين الشرعي بقوله : **(زعمت الشامية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة)** 45.

وهم بهذا المنطق تعاملوا مع خصومهم وأنصارهم على حد سواء ، أما ما يرد من إشارات تفيد بأن الخلافة والسلطان باختيار من الله وأن ذلك موهبة سماوية وقدر من الله وتقليد منه وأنه سبحانه وتعالى هو الذي يولي أمور المسلمين من يشاء وما إلى ذلك [46]، فكان الهدف منه مداعبة الشعور الديني لجمهور المسلمين ؛ ذلك الشعور الميال للتسليم بالقدر ، وهو في نفس الوقت مغازلة للأتقياء والورعين ليسلموا بوجودهم في السلطة بالاستناد إلى أن ذلك كان بقضاء الله وقدره .

وفيما يتعلق بنظام الحكم فقد استمرت ولاية العهد وراثية في العصر العباسي الاول كما كانت عليه في العصر الأموي، فقد أخذ الخليفة العباسي يعين ولي عهد ويأخذ في حياته البيعة له من وجوه الناس والاعيان وكبار القواد ويلجأ أحياناً إلى تولية العهد لأكثر من واحد من أبنائه أو أقربائه [47] .

ويعتبر ذلك استمراراً للانحراف عن المنهج الشرعي في هذا الجانب الذي بدأ مع قيام الدولة الأموية ثم استمر بعدها وقد كان هذا النهج محط نقد الفقهاء والعلماء لما فيه من ابتعاد عن الآلية الشرعية في تداول السلطة في النظام السياسي الاسلامي ، فمن أخطر ما يترتب على مخالفة المنحى الشرعي في هذا الجانب حصر السلطة في أسرة معينة مما قد ينجم عنه تولي غير الأكفاء للسلطة أحياناً وهو ما حصل كثيراً في المراحل اللاحقة للدولة العباسية في حين يقود نظام الشورى بمضامينه الحقيقية إلى تولية السلطة للأكفاء حقاً .

ولهذا السبب فقد واجهت الخلافة العباسية كثيراً من المشاكل حول ولاية العهد وشرعيتها ومسألة نقلها من ولي عهد الى آخر فالخليفة الأول أبو العباس قرر واقتنع بأن المرشح للمنصب من بعده اخوه أبو جعفر المنصور ؛ الذي يستطيع ضمان الحفاظ على الخلافة في

---

[45] الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، 425/7

[46] احمد بن يحيى بن جابر البلاذري ، انساب الاشراف ، تحقيق : عبدالعزيز الدوري الشركة المتحدة للتوزيح (بيروت : 1978) ج3 ص 268 .

[47] ابراهيم سلمان الكروي ، المرجع في الحضارة العربية الاسلامية مركز الإسكندرية للكتاب 2008 ص 39

نسل ابيه محمد العباسي لما ابداه ابو جعفر المنصور من الأعمال الكبيرة في خدمة الدولة العباسية لامتلاكه ثقافة واسعة ، إذ كان يحضر الحلقات الادبية والكلامية والمناقشات الدينية والسياسية في البصرة ، وصاحب عدداً من علماء البصرة مثل عمرو بن عبيد وغيره ، وجعل عيسى بن موسى ولياً للعهد بعد المنصور مبعداً ابنه محمداً عنها لضعف قدرته الإدارية والشخصية وصغر سنه [48] ، مما أثار غضب عمه عبدالله بن علي الذي ادعى بأن أبا العباس كان قد وعده بالخلافة إذا تمكن من قتل مروان بن محمد وقد فعل ولكنه لم يعلن ذلك رسمياً أو علنياً .

وحين توفي ابو العباس سنة (136هـ / 753م) اعلن الخليفة ابو جعفر المنصور ولي عهده عيسى بن موسى (ت167هـ/783م) ، والتطور الجديد الذي حدث هو رغبة المنصور في جعل الخلافة في نسله وإبعاد ابن أخيه عيسى بن موسى عن ولاية العهد ، وقد بدأ يعرض هذا الموضوع بعد نجاحه في القضاء على ثورة محمد ذي النفس الزكية إذ لقب هو (المنصور) وابنه (المهدي) من أجل رفع منزلته لدى العامة وترويج ذلك بين الناس والتمهيد له ليخلفه [49]

وجاء بعد الخليفة أبي جعفر المنصور ابنه المهدي سنة (158هـ / 774م) الذي شهد عصره أخطر حركة فكرية في العصر العباسي الأول ألا وهي الحركة الشعوبية ؛ إذ وجد أنصارها ودعاتها بين الكتاب والأدباء وبعض رجال الدولة والعامة، ويتضح فيها العداء للإسلام والسعي إلى إضعاف الدين الإسلامي والنبرة العنصرية والدعوة الى إحياء التراث القديم للشعوب والتقليل من شأن العرب ودورهم الحضاري والاستهزاء بالمثل والقيم العربية [50].

ويعد عصر هارون الرشيد سنة (170هـ / 786م – 193هـ / 808م) من أبهى العصور العباسية وسمي (بالعصر الذهبي) حيث كان من أفاضل الخلفاء العباسيين وعلمائهم

---

[48] المرجع السابق ص447

[49] المرجع السابق ص 9

[50] احمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي ، تاريخ اليعقوبي مشورات مكتبة الحيدرية النجف 1964 ج3 ص 125

وكرمائهم، كان يحج سنة ويغزو سنة .... وحج ماشياً ولم يحج خليفة ماشياً غيره وكان إذا حج حجّ معه مئة من الفقهاء وأبنائهم [51] .

وازدهر النشاط الثقافي في عهده المتمثل في بيت الحكمة ؛ وهو مؤسسة للثقافة العلمية تختص بالدرجة الأولى بالطب والفلسفة والمنطق والرياضيات والفلك ، وتترجم كتب الأوائل في العلوم العقلية مثل مؤلفات اليونان والهنود وغيرهم [52] .

وفي عصر الخليفة المأمون وبالتحديد سنة (218هـ / 833م) ظهر مبدأ الاعتزال وتقريب المتكلمين وظهرت (محنة خلق القرآن) ونوظر الإمام أحمد بن حنبل وعلماء آخرون وأوصى الخليفة أخاه المعتصم بالله باتباع هذه السياسة فلما مات ضرب أحمد بن حنبل ، واضطهد أهل الحديث في عصري المعتصم والواثق [53] .

ورغم العراقيل التي تعرض لها العباسيون، فإنهم تمكنوا من إرساء دعائم نظام متجدد أملته الظروف السياسية والاجتماعية المستجدة ومكانة الدولة الإسلامية، ذلك أن العقلية الإسلامية لم تقف جامدة أمام التطورات الحضارية التي شهدها العالم الإسلامي، وإنما تفاعلت معها وأنتجت نظاماً يتلاءم مع المبادئ الإسلامية العليا ولا يخرج عن الإطار العام كما رسمه القرآن الكريم وحددته السنة، ويوحد بين مصلحة الإسلام العليا ومصلحة الأمة من حيث ظروفها الدينية والسياسية الدنيوية واتجاهات العصر ؛ فكان الانفتاح الحضاري على الشرق بشكل خاص، والغرب، أحد الخطوات الهامة للأخذ بأسباب التطور.

وكما أسلفنا ظلت ولاية العهد إحدى الخطوات الهامة التي خطاها العباسيون من أجل تثبيت أقدام أسرتهم والاحتفاظ بالسلطة، والاستمرارية في ممارسة الحكم، في ظل معارضة الطالبيين بشكل خاص، الذين استاؤوا من تسلم آل العباس السلطة واستئثارهم بها وهم الذين ساندوا الثورة العباسية على أمل استلام الحكم ، باعتباره حقاً شرعياً في بيت علي ، وظلت المعارضة الطالبية ناشطة طيلة العصر العباسي الأول حتى تمكن الطالبيون من إقامة دول

[51] محمد ابن علي ابن طباطبا الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية دار صادر ببيروت 1966 ص157
[52] فاروق عمر فوزي ، الخليفة المجاهد هارون الرشيد هيئة كتابة التأريخ ،ط1 1989 ص 92
[53] الطبري ، تاريخ ، 631/8

انفصالية في المغرب والمشرق خلال العصر العباسي الثاني، نافست أحيانا دولة الخلافة العباسية وشكلت خطراً على وجودها. وأقام الخوارج دولاً انفصالية في المغرب . كما أسس عبد الرحمن الداخل الأموي دولة انفصالية في الأندلس .

وما إن أشرف العصر العباسي الأول على الانتهاء حتى أصبح العالم الإسلامي على وشك التفكك سياسياً مع الاحتفاظ برباط الخلافة الروحي باستثناء ما حصل مع العبيديين الذين لم يعترفوا أصلاً بالخلافة العباسية .

وأضحت الدولة عاجزة عن التصدي لمحاولات التدخل والهيمنة على سيادتها، ولم تستطع الاحتفاظ بسلطانها وسيادتها إلا مدة قرن تقريبا، إذ دبَّ فيها الخلاف والفتنة؛ فأدى ذلك إلى ضعف في مؤسسة الخلافة نفسها، وتبع ذلك ضعف في النواحي الإدارية والعسكرية والاقتصادية في الدولة عموما.

ويبدو أن مرد هذه الظاهرة يعود إلى ضعف شخصية الخلفاء، واتساع رقعة الدولة وصعوبة المواصلات بين أجزائها حتى تعذر على الخلفاء أن يمارسوا رقابة فعلية على ولاتهم في الأقاليم بالإضافة إلى توثب العناصر الإسلامية غير العربية للانفصال في محاولة لإحياء أمجادها القديمة .

وكان إقدام الخليفة المعتصم بالله (٢٢٧-٢١٨هـ-٨٣٣/ ٨٤٢م) على الاستعانة بالجند الأتراك وتمكينهم من السلطة، أقوى ضربة وُجّهت لهيبة الخلافة وأسهمت في إضعافها؛ فقد استبد أولئك الجند وتمكنوا من السلطة؛ فتدخلوا في تعيين الخلفاء والوزراء، واستهانوا بهم؛ فقتلوا بعضهم واعتدوا على آخرين[54].

[54] إحسان ذ نون عبد اللطيف الخلافة العباسية في عهد الضعف مجلة جامعة طيبة للآداب ع 20 2019 ص 426

واستمر ضعف الخلافة وانحلالها في العصر العباسي الثالث أمام بروز قوة البويهيين الشيعة. لكن حدث في أواخر العهد البويهي أن استعاد الخليفة العباسي القائم بعض صلاحياته منتهزاً الظروف السياسية المتدهورة التي كان يمر بها الحكم .

وفي هذا الوقت نجح الأتراك السلاجقة في تأسيس دولة لهم في الشرق على أنقاض الغزنويين والبويهيين وزحفوا نحو العراق، فدخلوه، وقضوا على الدولة البويهية، وحلوا محل البويهيين في حكمه واستأثروا بجميع السلطات في الدولة واستمر وضع الخلفاء على حاله مجردين من سلطاتهم حتى في حاضرة الخلافة، إلا أن معاملتهم لهم كانت أفضل من معاملة بني بويه ؛ باعتبارهم من أهل السنة ؛ فكانوا حريصين على بقاء الخلافة العباسية ليسهل لهم القضاء على منافسيهم من أنصار المذهب الشيعي، والحصول على تأييد العالم الإسلامي السني .

وفي أواخر العهد السلجوقي ضعف السلاجقة، فاتخذت العلاقة بين الخلفاء العباسيين والسلاطين السلاجقة طابعاً جديداً يختلف كل الاختلاف عن طابع العلاقات في فترة وحدة السلاجقة ، فاغتنم الخلفاء هذه الفرصة، وأخذوا يعملون على استعادة ما كان للخلافة من سلطة، وذلك عن طريق التخلص من النفوذ السلجوقي فدخل الطرفان في صراعات حادة انتهت بدخول الخوارزميين ثم المغول على الخط السياسي. وقد حقق هؤلاء المغول نجاحات مذهلة ، فقضوا على الدولة الخوارزمية، ثم زحفوا نحو العراق في محاولة للسيطرة على العالم الإسلامي، ودخلوا بغداد، فقتلوا الخليفة المستعصم وأسقطوا دولة الخلافة العباسية في عام (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م)[55] .

وبسقوط دولة الخلافة العباسية خسر العرب السيادة المطلقة ورجحت كفة العناصر غير العربية خاصة المماليك والأتراك العثمانيين الذين حملوا راية الخلافة الإسلامية . فحققوا باسم الإسلام أمجاداً مشرقة .

[55] الدكتور محمد سهيل طقوش تاريخ الدولة لعباسية ص رقم258

وظلت الخلافة في دولة بني عثمان يتوارثونها حتى عام **١٩٢٤م** حين أنهى كمال أتاتورك دور الخلافة ، ولا يزال هذا المنصب شاغراً حتى يومنا هذا .

وأخيراً تبقى دولة الخلافة العباسية التي عمرت ما يزيد على خمسة قرون - بالرغم من سلبياتها- صورة متألقة في ضمير المسلم، وصفحة مضيئة في تاريخه المجيد، يعتز بها، ويفخر بمآثرها .

- **الحياة الاجتماعية:**

شهدت الحياة الاجتماعية في العصر العباسي تطوراً وازدهاراً كبيرين ، نتيجة للتفاعل المستمر الذي انبثق عن الإسلام وروحه وتعاليمه . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نتيجة لبعض المؤثرات الاجنبية التي دخلت إلى المجتمع الإسلامي من الحضارات التي استوعبتها الدولة الإسلامية[56]، وقد ازداد هذا التطور الذي مر به المجتمع الإسلامي كثيراً في العصر العباسي الأول نتيجة لازدياد التفاعل بين جميع العناصر المختلفة من العرب وغير العرب ، مع كثرة المال والابتعاد تدريجياً عن العهد الأول للإسلام من ناحية ..[57] ، ومن ناحية أخرى بلغت الحضارة الإسلامية مرحلة النضج وذروة الانتعاش ، سواء في الجوانب الفكرية أو في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية وغيرها.... ، حيث أولى الخلفاء اهتماما كبيراً بالأدباء والشعراء والعلماء[58] ، وأصبحت الدولة الإسلامية في هذا العصر مركز العلم و المعرفة ، والذي أدى إلى انتعاش هذه الدولة هو انتشار الأمن بين ربوعها مع اتساعها ، إلا أنها كذلك عدت مجمعاً لكثير من الأجناس والعناصر والطوائف الدينية وغير الدينية ؛ وأدى هذا الخليط البشري الكبير المتنوع الأصول والدماء واللغات والعادات والتقاليد والمذاهب إلى إكساب الحياة الاجتماعية لوناً خاصاً فريداً داخل بوتقة الحضارة الإسلامية[59] ، وقد ضم المجتمع في العصر العباسي الفئات الاجتماعية الآتية:

- أولاً: العلماء:

كان العراق مركزاً للعلم والعلماء في العصر العباسي الأول وحظي العلماء بمنزلة رفيعة لدى رجال الدولة من الخلفاء والولاة ..، ولدى أفراد الطبقة العامة كذلك ، وبمختلف اختصاصاتهم

---

[56] سعيد عبد الفتاح عاشور سعيد زغلول عبد الحميد أحمد مختار عبادي، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العرب ،دار المعرفة الجامعية 1996ص 258

[57] عاشور وآخرون ، دراسات ، 263

[58] ابو منصور عبدالملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي ، لطائف المعارف تحقيق: ابراهيم الانباري دار الصادر بيروت 2020 ص 3 .

[59]) فوزي ، الخليفة المجاهد هارون الرشيد ، 93 وما بعدها

سواء أكانوا فقهاء أم ادباء، أم مؤرخين ، فقد كان للفقهاء دور كبير خاصة في بداية الدولة العباسية ؛ وهي فترة اضطراب ؛ لأن كثيراً من الناس لم يكونوا قد استوعبوا التغيير الجديد ، ومن أجل إزالة الإشكاليات التي تكونت لدى العامة ؛ رسم للفقهاء دور توجيهي مهم من خلال قدرتهم على التصحيح ، وهذا سوف يؤدي الى إقامة قيم جديدة وإزالة قيم قديمة وبأقل الخسائر، وهو ما أعطى مساحة جديدة من النشاط للفقهاء لممارسة دورهم[60].

ومن أبرز الخلفاء العباسيين الذين قربوا هذه الفئة الخليفة " المأمون " الذي ازدهرت في عصره الحركة العلمية وحركة الترجمة والتأليف ونالوا منه أموالاً كثيرة [61]

- ثانياً: التجار:

ضمت هذه الفئة المسلمين وأهل الذمة ، وحظي هؤلاء بنفوذ كبير في العصر العباسي نتيجة ازدياد الترف والبذخ لدى رجال الدولة والأغنياء من الناس ، حيث ظهرت الأسواق الكبيرة لتلبية حاجة هؤلاء مثل سوق الكرخ، وكان يعيش هؤلاء بمستوى عال مقارنة بالفئات الأخرى في المجتمع، وقد قامت حياتهم على الترف والبذخ والإسراف في الإنفاق وما يترتب على ذلك من مشكلات اجتماعية واقتصادية منها على سبيل المثال ظهور التحاسد بين الاغنياء على ثرواتهم أو بين الفقراء والمعدمين من جهة والاغنياء من جهة أخرى وقد يقود البذخ إلى الوقوع في المعاصي والآثام من قبيل تعاطي الخمر أو غيرها من مظاهر الانحلال الخلقي ؛ لأن الغنى والثراء يفتح أمام الإنسان أبواباً واسعة للفتنة [62].

[60] احمد ابراهيم عيسى محمد التصوف في بغداد القرن السادس هجري مجلة الدراسات العربية ب .ت ب .ط
[61] مليحة رحمة الله الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين مطبعة الزهراء بغداد (1970) ص47ص.
[62] عاشور وآخرون تاريخ الحضارة الإسلامة العربية ص63

- ثالثاً: أرباب الحرف والصناعات

ضمت هذه الفئة أصحاب المكاسب من باعة وحرفيين وتدل الإشارات إلى أن معظم سكان بغداد كانوا ممن يعمل في الخدمة الحكومية مدنيين كانوا أم عسكريين فضلاً عن الصناع والتجار، ومن المنطقي أن عدداً كبيراً من سكان بغداد هم من العاملين في السوق سواء أكانوا باعة في مختلف مستوياتهم أم حرفيين، ويبلغ عدد الحرف تقريباً أكثر من مئتين، ولا شك في أن عدد العاملين في الزراعة داخل مدينة بغداد هم أقل بكثر من العاملين في الحرف الأخرى.

ويدخل اصحاب المكاسب في غمار العامة ،ويصدق عليهم القول المأثور (الحرفة أمان من الفقير وأمان من الغني) ، وغالباً ما يتراوح المستوى المعيشي لهؤلاء بين الفقر الشديد وما دون مستوى الغنى. [63]

وهناك بعض المهن عدت الأكثر فقراً من غيرها مثل الجزارين والقصابين والشوائين والطهائين ، [64] فضلا عن العاملين في الصيد لذا لجأ هؤلاء الى التضامن والتعاون بينهم لتحقيق نوع من الحماية الذاتية في مواجهة شدة الفقر أو للخروج من المصائب التي قد تحل ببعضهم ، وعد الجاحظ مهناً أخرى لا تبلغ بأصحابها مبلغ اليسار مثل السنانين والعاملين في الطين والحراثة وكل ما صغر من تجارات وصناعات في حين كانت مهن أخرى تحقق لأصحابها عائداً جزيلاً مثل كبار الكتاب وباعة الجواهر .....

وبلغ شظف العيش عند عدد من الزهاد أنه كان يكتفي بسبعة عشر درهماً في الشهر، فانتشر السويق كمادة غذائية رئيسة بنطاق واسع لرخص سعرها ، وربما لكونه بطئ الهضم فيقلل بذلك من آلام الجوع ، وجسد الشعراء الصعاليك المعاصرون لهذه الفترة حالة البؤس الشديد التي عاشها قطاع من الفقراء ، ويظهر أن المساجد والجوامع كانت السكن الذي أوى إليه ليلا عدد غير قليل من الفقراء لعجزهم عن امتلاك مساكن خاصة بهم ،وتم تكلف الدولة نفسها في الحفاظ على أصحاب الحرف والمهن من الظلم والتعسف أو ما يفرض عليهم من ضرائب.

[63] مليحة رحمة الله الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين ص 51
[64] رنا سليمان الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في الدولة العباسية من خلال مصنفات الجاحظ رسالة ماجستير 182

ورغم ما وصلت إليه الدولة الإسلامية في ذلك العصر من تطور ونضوج في كافة الجوانب الحياتية سياسية كانت أم فكرية أم اجتماعية ؛ إلا ان الاخفاقات التي تنشأ مع كل دولة في التاريخ تعمل عملها في ضعف الدولة وعلى أي جانب من جوانبها المعاشية ، فكان من نتائج سوء توزيع الضرائب والاستغلال الذي رافق عمليات جبايتها ونتيجة للنظام الاقتصادي المربك الذي سارت عليه الدولة في أغلب عصورها[65] ، أن نشأت طبقتان اجتماعيتان متميزتان , هما: الطبقة العليا "الحاكمة" ، والطبقة الدنيا "المحكومة" ، ((ولا يعدل ترف الاولى من حيث التطرف والتناهي غير بؤس الطبقات الدنيا وفقرها المدقع والطبقة المترفة تعيش على حساب استغلال عرق أبناء الطبقة المحكومة))[66] ، غير متناسين في الوقت ذاته وجود طبقة ثالثة تكاد تكون مستقلة بخصائصها متميزة عن الطبقتين السابقتين وتسمى بالطبقة الوسطى والتي تدرج من قبل أغلب الباحثين من ضمن التقسيمات الطبقية الاجتماعية ، إلا أنها تكون في أغلب الأحيان مضطرة إلى الارتباط بإحدى الطبقتين السابقتين ، فهي إما أن تتعامل مع الطبقة الحاكمة المتسلطة وتعيش تحت ظلالها وتصبح جزءاً من شدة وطئتها وقساوتها مع الناس او تتعرض للافتقار مع مرور الزمن لأنها لا تملك ما تحافظ به على وجودها وبهذا تكون في قبال او جزءاً من الطبقة الحاكمة [67] .

وقد تختلف التسميات لهذه الطبقات بما تعارف عليه المؤرخون القدماء أو المحدثون الا انها لا تعدو أن تسمى بما سميناه أو بالطبقة الخاصة والطبقة العامة وإذا كان هذا التقسيم هو الذي يمكنه ان يلف أغلب فئات المجتمع أنذك ؛ فإن هناك جوانب اجتماعية تتولد مع شدة القساوة الاقتصادية[68] ، فتنتج على إثر ذلك فئات أخرى غريبة لا نستطيع ربطها عضوياً مع تلك الطبقات إلا أننا نضطر أن نربطها مع الطبقة الوسطى التي لا تندرج مع طبقة الحكام

---

[65] عمر , فاروق , التاريخ الاسلامي وفكر القرن العشرين , , مؤسسة المطبوعات العربية , , بيروت – لبنان ط1 (1400هـ - 1980 م) , ص255

[66] بروكلمان , تاريخ الشعوب الاسلامية , ترجمة : نبيه فارس ومنير البعلبكي , دار العلم, بيروت – لبنان, ط3 (1961م) , ج2ص82

[67] عبداللطيف عبدالرحمن الراوي , المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع للهجرة , مكتبة النهضة , بغداد , ط1 1971 ص28

[68] الدوري , عبدالعزيز , تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري , مركز دراسات الوحدة العربية , بيروت – لبنان ط4 (1999م), ص295

وأصحابهم أو الفقراء وأتباعهم[69] ، إلا أن هذه الطبقية لعلها تكون في أغلب الظن هي الافراز الطبيعي للصراعات الطبقية في المجتمعات الانسانية ، إذ أنها فئات قلقة اتخذت طرقاً للعيش من خلال الذل او العزلة ، والدجل من أشباه بعض المحتالين في الكدية وبعض رجال الصوفية وجانب من المشعوذين الذين اتخذوا من السحر مادة لقوتهم على الحمقى من أبناء المجتمع للوصول إلى حياة مادية أفضل ... وتلك الفئات لاتعد أساسية في المجتمع لأنها لا ترتبط مباشرة بأسلوب الانتاج السائد[70] .

[69] القاضي التنوخي , ابو علي محسن, مشوار المحاضرة واخبار المذاكرة , تحقيق : عبود الشالجي المحامي , دار صادر بيروت – لبنان , (1391هـ - 1971م) ح2 , ص358

[70] القاضي التنوخي , ج2ص358

- **الحياة الفكرية:**

ازدهرت الحياة الفكرية في العصر العباسي ازدهارا كبيرا فقد تلاقت في الحواضر الإسلامية شتى الثقافات التي تمثل الأمم وآثارها في العلم والثقافة، فكانت الدولة مزيجاً من شعوب كثيرة وكانت عقلية هذا الشعب الجديد يتجلى عليها أثر الثقافات الموروثة من مختلف الحضارات السابقة [71] ، وقد كان لامتزاج العنصر العربي بالعناصر الأجنبية الأخرى تأثير هامّ في الحياة العقلية والثقافية ؛ لأن كل عنصر من هذه العناصر له عاداته وتقاليده وأفكاره وآدابه التي تميزه عن الآخر ، وربما كان لهذا الامتزاج بين العرب والفرس والروم والهنود أثر كبير في هذا العصر لأن مزج الثقافات المختلفة مع بعضها البعض يؤدي الى خلق بيئة تتمتع بقدر كبير من الخصائص والمميزات المختلفة

وقد كانت الدولة العباسية وبخاصة في العصر العباسي الثاني مؤمنة إيماناً تاماً بالروح العلمية والحرية الفكرية يقول جرجي زيدان: «يمتاز العصر العباسي الأوّل بأن من تولّى فيه عرش بغداد كان من الخلفاء العلماء، فرغبوا في العلم وإجلاس العلماء والأدباء وسهّلوا نزوحهم إليهم وأجروا الأرزاق عليهم وبالغوا في إكرامهم وقرّبوهم وجالسوهم وآكلوهم وحادثوهم وعولوا على آرائهم. فلم يبق ذو قريحة أو علم وأدب إلّا يمّم دار السلام ونال جائزة أو هدية أو راتبا... وخلفاء العصر العباسي الأوّل من أكثر الملوك رغبةً في العلم.»

وهنالك بعض الملامح التي تبرز الحياة الفكرية والثقافية في هذا العصر وترسم فيه صورة المجتمع من خلال تلك الحياة المتسعة بثقافتها المختلفة ، والحقيقة أن ذلك العصر كان أزهى عصور العلم في بلاد الاسلام قاطبة لأنه كان أول عصر تلقى فيه علوم الثقافة الإسلامية كلها. 1 كاملة مفروغاً من وضعها وترجمتها وتحضيرها [72] ، وذلك لأن بني العباس وجهوا همهم

[71]) محمد عبد المنعم خفاجي، ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان ،دار الجيل بيروت 1991 ص 22.

[72] عباس محمود العقاد، ابن الرومي حياته من شعره ، مؤسسة هنداوي ،2014ص 40.

نحو العلم والثقافة وشغفوا بعلوم الأمم الأخرى الأجنبية فأقبل العلماء على التأليف والترجمة **وقد ميَّز علماء المسلمين بين نوعين من العلوم:**

- علوم تتصل بالقرآن الكريم، وهي العلوم النقلية أو الشرعية، وتشمل: علم التفسير، وعلم القراءات، وعلم الحديث، والفقه، وعلم الكلام، والنحو، واللغة والبيان والأدب.
- علوم أخذها العرب عن غيرهم من الأمم، وهي العلوم العقلية وتشمل: الفلسفة والهندسة وعلم النجوم والموسيقى والطب والكيمياء والتاريخ والجغرافيا.73

وقامت المساجد بدور فعَّال في نشر الثقافة الإسلامية؛ حيث كانت تكتظ بحلقات العلم والدرس، وبخاصة العلوم الشرعية مثل تفسير القرآن وجمع الحديث واستنباط أحكام الدين والتدليل على العقائد الدينية ، ونشأت في كنف علمي التفسير والحديث، فقد زاد الاهتمام بالسنة النبوية و نما تفسير القرآن في هذا العصر نموا واسعا وظهرت فيه اتجاهات أربعة هي:

- اتجاه التفسير بالمأثور
- والتفسير بالرأي
- والتفسير الإعتزالي أو التفسير الشيعي
- والتفسير الصوفي

ومن مفسري هذا العصر محمد بن جرير الطبري ومن علماء الحديث الإمام البخاري والإمام مسلم رضي الله عنهما 74 ، وأيضا من علماء السنة في هذا العصر: حجة الإسلام وهو الإمام أبو زكريا يحي بن معين البغدادي 75 ، ومن علماء الفقه صاحب الإمام الشافعي ، أبو يعقوب يوسف وخالد بن خراش المهلب البصري صاحب (علوم الحديث)76

73 أحمد أحمد بدوي ، البحتري ، دار المعارف، الطبعة الرابعة ، 2006، ص 18

74 شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، ص 165

75 أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دار الآفاق الجديدة بيروت ، المجلد الأول ،ب.ت ب.ط ج 2

76 المصدر نفسه ، ج 2، ص 71

ومن أبرز المؤلفات في هذا المجال: كتاب الموطأ الذي ألَّفه الإمام مالك إمام دار الهجرة (المدينة المنورة) بناءً على طلب المنصور، فيُروى أنَّ الخليفة أبا جعفر المنصور قابل الإمام مالكًا في موسم الحج، وكلَّمه في مسائل كثيرة من العلم، ثم قال له: "يا أبا عبد الله لم يبقَ في الناس أفقه مني ومنك، وإني قد شغلتني الخلافة، فاجمع هذا العلم ودوِّنه ووطِّئه للناس توطئة، وتجنب فيه شدائد عبد الله بن عمر، ورُخَص عبد الله بن عباس، وشواذ عبد الله بن مسعود، واقصد إلى أواسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة رضي الله عنهم". فاعتذر الإمام مالك، فلم يقبل المنصور منه، فوضع مالك كتاب الموطأ.

وازدهرت دراسة الفقه ازدهارًا عظيمًا وكانت له مدرستان، الأولى: مدرسة أهل الرأي والقياس في العراق، ومؤسسها أبو حنيفة النعمان المتوفى سنة (150هـ)، وخلفه أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم المتوفى سنة (182هـ)، ومحمد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة (189هـ)، والثانية: مدرسة أهل الحجاز، ومؤسسها مالك بن أنس، وتُسمَّى مدرسة أهل الحديث، ثم جاء الإمام الفقيه محمد بن إدريس الشافعي المتوفى سنة (204هـ)، وجمع بين هاتين المدرستين، أي جمع بين طريقة الحجازيين في الاعتماد على الكتاب والسنة وطريقة العراقيين في الاعتماد على الرأي[77].

أما العلوم اللسانية كالنحو والصرف فقد كان هذا العصر عصر عناية بها، فظهر كتاب سيبويه في النحو على مذهب البصريين ، وشرحه تلميذه الأخفش .كما ظهر كتاب (الحدود) للفراء في النحو على مذهب الكوفيين 78، ومن علماء النحو نفطويه الذي كان يدرس النحو بجامع المنصور خمسين سنة 79.

أما البلاغة فقد شهد هذا العصر مبدأ تكوينها في كتاب مجاز القرآن الذي ألفه أبو عبيدة ، وأيضا كتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب البــديع لابن المعتز80 .

77 عاشور و آخرون دراسات ،44

78 أحمد بدوي ، البحتري ، ص 16

79 شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، ص 18

80 أحمد أحمد بدوي ، البحتري ، ص 18

أما علوم اللغة فقد حاول العلماء جمع ألفاظها في كتاب بعد أن وضع بعض العلماء رسائل صغيرة في فئات من الألفاظ التي تتصل بموضوع واحد[81]

أما العلوم الدخيلة فهي أربعة أقسام :

- طبيعية كالكيمياء والطب والصيدلة
- ورياضية
- وسياسية
- وإلهية تشمل ما وراء الطبيعة [82].

أما الأدب فقد امتاز بظهور الحياة العقلية فيه و صدق تمثيله للحياة الاجتماعية. وقد أصبح الأدب في هذا العصر صناعة عقلية في الإنشاء والتأليف ، وما يتجلى فيه من إبداع التصوير واتساع الخيال بالمبالغة الشديدة والإكثار من الحكمة والمثل والبراهين العقلية ، وقد أصاب الأدب كساد في فترة من الفترات وانصرف الناس الـي الفلسفة وعلومها [83] .

وقد شجع الرشيد العلم والعلماء، وأنشأ بيت الحكمة[84]، وجمع فيه كثيرًا من المؤلفين، والمترجمين والنساخ. ومن أشهرهم: سهل بن هارون، والحسين بن سهل، والفضل بن نوبخت، وكانوا يترجمون من الفارسية إلى العربية. وحنين بن إسحاق، ويوحنا البطريق، ويوحنا بن ماسويه[85]، وكانوا يترجمون من اليونانية والسريانية إلى العربية، وفي عهد المأمون نشطت حركة الترجمة والنقل من اللغات الأجنبية إلى العربية، فأرسل البعوث إلى القسطنطينية لإحضار المصنفات الفريدة في الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب وهذا يرجع إلى أن المأمون كان عالماً جليل القدر وكان يجالس العلماء و يشاركهم بحوثهم ، وقد اعتنى بالترجمة عناية كبيرة حشد لها همته وأعد عدته ومن عنايته بالترجمة وسلامتها من الأغلاط

81 شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، ص 118

82 أحمد أحمد بدوي ، البحتري ، من 18

83 محمد عبد المنعم خفاجي ، ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان ، ص 32

84 فاروق عمر فوزي الخليفة المجاهد هارون الرشيد ص 92

85 المرجع السابق 94

العلمية واللغوية أنشأ ببغداد مدرسة الترجمة ليتعلم فيها أبناء العرب اللغات المختلفة حتى يجيدوا النقل عنها 86.

وبجانب اهتمام الخلفاء بحركة الترجمة والنقل، اهتم ذوو اليسار (الأغنياء) بتشجيع العلم والإنفاق على الترجمة إلى اللغة العربية، ومنهم محمد وأحمد والحسن أبناء موسى بن شاكر[87] ؛ الذين أنفقوا أموالًا ضخمةً في ترجمة كتب الرياضيات، وكانت لهم آثار قيمة في الهندسة والموسيقى والنجوم، وقد أرسلوا حنين بن إسحاق إلى بلاد الروم فجاءهم بطرائف الكتب وفرائد المصنفات.

وقد اشتغل كثير من المسلمين بدراسة الكتب التي تُرجمت إلى العربية، وتفسيرها والتعليق عليها، وتصحيح أخطائها، ومن هؤلاء: يعقوب بن إسحاق الكندي، الذي ترجم كثيرًا من كتب الفلسفة وشرح غوامضها، ونبغ في علوم الطب والفلسفة والحساب والمنطق والهندسة وعلم النجوم[88].

ومن العلوم التي ظهرت وتطورت في ذلك العصر: علم الكلام، ويقصد به الجدل الديني في الأمور العقيدية، ويسمَّى المشتغلون به "المتكلمين"، ومن أشهر فرقهم المعتزلة الذين دخلوا في محاورات ومجادلات مع غيرهم من المرجئة، والرافضة، والشيعة، والنصارى، واليهود، والمانويين ، وأهم رجال المعتزلة واصل بن عطاء المتوفى سنة (131هـ)، وعمرو بن عبيد المتوفى سنة (145هـ)، وبشر بن المعتمر المتوفى سنة (210هـ)، وثمامة بن أشدس المتوفى سنة (213هـ)، وأبو الهذيل العلاف المتوفى سنة (227هـ).

وشهد ذلك العصر نخبة كبيرة من علماء اللغة، منهم: أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة (154هـ)، وخلف الأحمر المتوفى سنة (180هـ)، والأصمعي صاحب الأصمعيات المتوفى سنة (213هـ)، وأبو زيد الأنصاري صاحب كتاب النوادر المتوفى سنة (214هـ)، وأبو عبيدة صاحب نقائض جرير والفرزدق المتوفى سنة (210هـ)، ومحمد بن سلام الجمحي، وحماد

86 السباعي بيومي ، الأدب وتاريخه بالمشرق، مكتبة الانجلو ، الطبعة الأولى ، 1953 ، ج 2 ، ص 231

87 شوقي ضيف العصر العباسي الثاني 132

88 شوقي ضيف العصر العباسي الثاني 137-138

الراوية المتوفى سنة (155هـ)، والمفضل الضبي، وأبو عمرو الشيباني المتوفى سنة (206هـ)، وأبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة (224هـ).

وفي النحو: عيسى بن عمر الثقفي المتوفى سنة (149هـ)، والخليل بن أحمد الواضع الحقيقي لعلم النحو المتوفى سنة (170هـ)، وسيبويه المتوفى سنة (180هـ)، ومعاذ بن مسلم الهراء المتوفى سنة (187هـ)، والكسائي المتوفى سنة (189هـ)، والفراء المتوفى سنة (207هـ).

وعني كثير من اللغويين والنحاة بكتابة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأشهرهم محمد بن إسحاق المتوفى سنة (151هـ)، و ابن هشام المتوفى سنة (213هـ)، ومحمد بن عمر الواقدي المتوفى سنة (207هـ)، ومحمد بن سعد صاحب الطبقات المتوفى سنة (230هـ)[89].

كما نشطت كتابة التاريخ في العصر العباسي الأول، وأشهر من اشتغل بذلك العلم: محمد بن الحسين بن زبالة، وأبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي المتوفى سنة (157هـ)، وسيف بن عمر التميمي المتوفى سنة (180هـ)، وهشام بن محمد الكلبي المتوفى سنة (204هـ)، والمدائني المتوفى سنة (225هـ).

كما شهد ذلك العصر نخبة كبيرة من فحول الشعراء، على رأسهم بشار بن برد المتوفى سنة (168هـ)، وأبو نواس الحسن بن هانئ المتوفى سنة (195هـ)، وأبو العتاهية المتوفى سنة (211هـ)، ومسلم بن الوليد المتوفى سنة (208هـ)، وأبو تمام حبيب بن أوس المتوفى سنة (231هـ).[90]

وتطور النثر في العصر العباسي الأول بعد دخول كثير من الثقافات اليونانية والفارسية والهندية التي امتزجت به، وأهم فنون النثر في ذلك الوقت الخطابة والوعظ، والمناظرات، والرسائل الديوانية -العهود والوصايا والتوقيعات- والرسائل الإخوانية والأدبية.

[89] عاشور وآخرون دراسات 67-69
[90] المرجع السابق 59

ومن أعلام الكتاب في ذلك العصر: ابن المقفع المتوفى سنة (143هـ)، وسهل بن هارون المتوفى سنة (215هـ)، وأحمد بن يوسف المتوفى سنة (213هـ)، وعمرو بن مسعدة (217هـ)[91].

ومن العوامل التي أسهمت في ازدهار الحركة العلمية في العصر العباسي الأول ظهور الورق واستخدامه في الكتابة، وقد أنشأ الفضل بن يحيى البرمكي مصنعًا للورق في عهد الرشيد ببغداد، فانتشرت الكتابة فيه لخفته، بعد أن كانوا يكتبون على الجلود والقراطيس المصنوعة بمصر من ورق البردى

أما من ناحية النظام التعليمي فلم تكن هنالك مراحل للتعليم كما عهدناها اليوم من مدارس وجامعات ومعاهد متخصصة ، بل كان الكتاب يحل محل تعليمنا الابتدائي والإعدادي ، ومن أراد أن يكمل تعليمه بعد ذلك يذهب إلى حلقات المساجد وكانت أشبه بمعاهد عليا ، فلم تكن فقط دوراً للعبادة بل قل جامعات للعلم والعلماء ، إذ كان لكل عالم في كل فرع من فروع العالم حلقة كبرى يتحلق فيها طلابه من حوله. فكانت المساجد حينئذ أشبه بالجامعات الحرة فالطلاب يختلفون إلى من يشاءون الاستماع إليه بدون أي شرط منهم من يأخذ الفقه أو الحديث أو التفسير أو النحو أو الشعر[92].

ويتضح لنا مما سبق أن الحياة الفكرية ازدهرت في العصر العباسيّ ازدهارا كبيراً ، حيث تلاقت العلوم وتقابل العلماء ، وهذه العقلية تعكس صورة ذلك المجتمع الذي أولى اهتمامه الأكبر للعلم والبحث في القرآن والسنة والعلوم الإنسانية والعقلية والآداب.

[91] المرجع السابق60

[92] شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، ص 132.

- **أكثر الحضارات تأثيرا في عصر الجاحظ**

لقد كان لتلك الشعوب والأعراق التي دخلت في دين الله أفواجا وبالأخص العنصر الفارسي دور فعال في بناء الحضارة العربية الإسلامية الزاهرة التي قامت على أكتافهم و بمجهوداتهم ، وكان لهم الفضل الأكبر على اللغة العربية والأدب العربي ، ويظهر ذلك فيما خلفوه من ما نلمحه من آثار طيبة في بروز تيار شعراء المعنى والحكمة أمثال المتنبي وأبي تمام و المعري وغيرهم ، حتى قيل:" أبو تمام والمتنبي حكيمان والشاعر البحتري ، وعلى هذا نقول إن العصر العباسي يعد محطة كبرى في تاريخ الأدب العربي الزاهر ؛ ففي هذا العصر بلغ المسلمون من العمران و السلطان مالم يبلغوه من قبل ولا من بعد ، وأثمرت فيه الفنون الإسلامية ، وزهت الآداب العربية ، ونقلت العلوم الأجنبية ، ونضج العقل فوجد سبيلا إلى البحث ومجالا للتفكير.

إن البيئة العربية لم تنقلب فجأة ، بل بدأ التغير فيها منذ خرجت جيوش الفتح إلى أقطار العالم في الشرق والغرب ، ومنذ أخذ الإسلام ينتشر بين غير العرب ، ومنذ شرع البدو يتخلون عن سكنى البادية ، وينزلون الحاضرة ، وقد نتج عن ذلك احتكاك العرب بغيرهم من الأمم واقتباسهم أمورا كثيرة من أوجه الحضارة المادية ومن أساليب التفكير ، ثم إن الموالي الأولين احتفظوا بكثير من أساليب تفكيرهم وعاداتهم في الجدال خاصة ، وأخذوا يتساءلون عن كثير مما في الإسلام من فروض وأحكام وعقائد- بعد الموازنة بينها وبين ما عرفوا في أديانهم القديمة- كالتفريق بين ذات الله وصفاته ، والبحث في شأن الجنة والنار ، وفي أعمال الإنسان ، وهل هو مجبر على أعماله و وهكذا حتى نشأت منذ أواسط العصر الأموي حركة الاعتزال ، ثم اتسعت في العصر العباسي اتساعا كبيرا. ولم يضق صدر الإسلام بهذه الحركة ، لأنها حركة أصيلة فيه ولكن أهل الدولة حملوا الأمر على ظاهره ، فكانوا إذا ضاقوا بخصم سياسي ثم وجدوا عنده شيئا من حرية التفكير ، قالوا إنه زنديق ، وأخذوه في الظاهر بهذه التهمة بينما

هم كانوا في باطنهم ينتقمون من خصومته السياسية. وبما أن الدولة العباسية قامت على سيوف الخراسانيين من الفرس الذين كانوا سندا لهم على نيل الخلافة ، فلم يكن مستغربا بأن يلقي العباسيون قيادة دولتهم إلى الفرس جملة ، حتى أصبحت الدولة العباسية فارسية في كل شيء وحتى أصبح الفرس والخراسانيون خاصة يدعون" أبناء الدولة" فأثار ذلك نقمة العرب والشيعة ؛ خاصة على العباسيين ، كما أجج ذلك طمعاً في نفوس الفارسيين باستعادة حضارتهم الساسانية . ولم يكن هذا هو التأثير الوحيد الذي سببه التنوع العرقي والامتزاج الحضاري المهول الذي شهدته ربوع الدولة الإسلامية أنذك بل وطال تأثير امتزاج العنصر العربي بغيره من العناصر الأجنبية في جميع مناحي الحياة اجتماعية كانت أم فكرية أم سياسية ، ورغم ما نتج عنه من إثراء للنشاط الثقافي والعلمي خصوصا في مجال الترجمة ، مما أسهم في تقدم العلوم العقلية والطبيعية والهندسية والفلك والرياضيات بل و تطور وازدهار العلوم الشرعية ؛ إلا أن نتائجه تراوحت بين الإيجابية والسلبية .

وعموما سنحاول أن ذكر في ما يلي أبرز الحضارات التي كان لها تأثير كبير في العصر العباسي.

- **الحضارة الفارسية**

لقد كان للفرس علم وأدب يتناسب مع ضخامة ملكهم، ولما عظم اختلاط العرب بالفرس وخاصة في العصر العباسي، تأثر العرب والمسلمون بعلوم وفنون وثقافة الفرس، ولذلك أخذوا في ترجمة الكثير من آثارهم الثقافية والعلمية، خاصة في مجالات الآداب والحكم، والقصص، ونظم الحكم والعادات والتقاليد 93 ، وما من شك في أن الفتح الإسلامي للإمبراطورية الفارسية، ودخول الفرس بمواريثهم الحضارية في إطار الدولة الإسلامية، قد

93 حمد حسن محمود احمد ابراهيم الشريف العالم الإسلامي في العصر العباسي دار الفكر العربي د.ت ص٢٥١

أتاح فرصاً ثرية للتفاعل الحضاري الواسع، والخلاق بين الحضارة الفارسية، وبين الفكر الإسلامي .

وقد انتشرت الثقافة الفارسية في العصر العباسي انتشاراً عظيماً، وساعد في ذلك عاملان هما :

- إنشاء منصب الوزارة وإسناده غالباً إلى الفرس، وبذلك أتيح للفرس النظر في الأمور السياسية والحربية، والثقافية، والعلمية، وكان الوزير يقوم مقام الخليفة في كل هذه الأمور.
- - انتقال عاصمة الخلافة من دمشق إلى بغداد، والعراق مركز كبير للثقافة، وكانت تقطنه ممالك مختلفة، وبذلك التحول في مركز الخلافة، أصبحت بغداد أهم مركز للحضارة والثقافة في الدول الإسلامية94.

ولكن على الرغم من ذلك التفاعل بين الفكر الإسلامي والتراث الفارسي، فإن المسلمين كانوا على حذر دائم من الخصوصيات الحضارية الفارسية، والتي يمكن أن تتعارض مع معايير الإسلام وخصائصه الحضارية، فلقد رفض المسلمون الفلسفة التي يقوم عليها نظام الحكم في فارس بسبب تقديسهم ل "كسرى"، مما يتعارض مع مبادئ الدين الإسلامي، كما رفضت الحضارة الإسلامية التقسيمات الطبقية للمجتمع، لتعارضها الواضح مع فلسفة الإسلام في المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات، كما تصدى علماء المسلمين بحزم لكل المذاهب والفرق غير الإسلامية والتي تبنت مذاهب الفرس وفلسفاتهم، ففي الوقت ذاته الذي فتحت الأبواب فيه للإطلاع على التجارب العلمية الإنسانية، تجد فيه المقاومة القوية للفلسفات التي تتعارض مع معايير الإسلام في السياسة والاجتماع والدين ، ولقد أثر الفرس تأثيراً كبيراً في الثقافة الإسلامية، وخاصة أن كثيراً ممن دون في العلوم من الفرس ؛ وذلك لأن العلوم صناعة ؛ والصناعات من خصائص الحضر، والعرب كانوا بدوا رحلا ، فكان صاحب النحو سيبويه ، والفارسي من بعد، والزجاج من بعدهما، وهؤلاء من العجم ؛

94 امين احمد ضحى الإسلام مؤسسة هنداوي 2012 ج١ ص١٨١

ولعل السبب في ذلك أن الفرس كانوا في جملتهم أقدر على التأليف والتدوين، لأنهم متعمقون في الحضارة، ولأنهم مرنوا من قديم على التأليف بلغتهم، فلما دخلوا في الإسلام وتعلموا العربية، كان تأليفهم بالعربية سهلاً، لأنه احتذاء للمنهج، وإن اختلفت اللغة والموضوع[95]

وقد انعكس ذلك الاهتمام بالتأليف على الساحة الأدبية منتجا عصراً ذهبياً للغة العربية، فقد زخرت بآلاف المصطلحات المقابلات والمأثورات التي أثرت اللغة العربية، خاصة في مجالات المأكل والمشرب، وتنظيم الدواوين، ولا زال المشتغلون بالعلم يستفيدون من المنجزات التي نتجت عن التفاعل الحضاري القائم بين الحضارة الساسانية والعربية ، وتلك النهضة العلمية والتي دونت بلغة عربية علمية معطاءة، اتسعت آفاقها لتشمل شتى العلوم والفنون.

وقد كان لاستحداث منصب الوزارة في العصر العباسي، دور حيوي في نشر الثقافة الفارسية حيث اهتم أول الوزراء اهتماما خاصة بحركة الترجمة والنقل فكان الوزير يختار من الفرس الذين كانوا يتميزون بإتقان العلم والكتابة، كما كان الوزير ينتقي أفضل الكتاب والمترجمين، والذين هم من ذوي الاطلاع الشامل، ولذلك كان للبرامكة دور كبير في تعرف المجتمع العربي على الثقافة الفارسية" . وقد عرف عن البرامكة إيواؤهم لكثير ممن عرفوا بحرية الرأي أو اتهموا بالزندقة، وإن كان البرامكة يعنون كل العناية بالثقافة الفارسية، فإنهم قد عنوا إلى جانب ذلك بالثقافات الهندية واليونانية والعربية.

ومما لا شك فيه، أن الثقافة الفارسية كانت عنصراً أصيلاً في العصر العباسي، خاصة في الشعر ونظم الحكم، واللهو والغناء والديانات ومذاهب المتكلمين، وقصور الخلافة، وقد كان للفرس حماة ودعاة يعملون أحياناً بدواعي العصبية للفرس، وأحياناً بدواعي الخير والإصلاح .

[95] المرجع نفسه ص ٢٠٨-٢٠

وعليه يمكن القول أنه بالرغم ما حققه انفتاح العرب على الحضارة الفارسية من نتائج إيجابية ، وبالرغم أيضا من الدور البارز الذي لعبه الفرس في النهضة العربية في العصر العباسي إلا أن هذا الفضاء المتحرر الذي عاش فيه المجتمع العباسي إثر هذا الانفتاح الحضاري نتجت عنه سلبيات كثيرة تمثلت في ظهور عدة ظواهر دخيلة على المجتمع العربي والإسلامي وانتشارها واستفحالها مثل ظاهرة الزندقة 96 وظاهرت اللهو والمجون والمجاهرة بالمعصية بل والتباهي بها ، كما نتجت عن الاوضاع السياسية والاجتماعية الجديدة التي عاشها الفرس تغلغل بعض الحركات التي تحمل عنصرية وإزداء كبيرين ضد العرب مثل حركة الشعوبية97 التي شهدت انتشارا كبيراً وقويا بين الفرس لعدة أسباب من أبرزها أنه في عصر الفتوحات الإسلامية، كان الفرس أكثر تحضراً من العرب، وأكثر مدنية، فنما لديهم شعور بالاستعلاء يعمق نزعة التعصب لديهم بعد أن قام المسلمون - ممثلين بالعرب - بالسيطرة على بلادهم.

ومن هنا وبناء على ما أسلفنا يمكن القول بأنه كان للتداخل الحضاري بين الفرس والعرب تأثير كبير طال جميع مناحي الحياة لدى كلا المجتمعين

- **الحضارة اليونانية**

يعتبر انفتاح العرب على الحضارة الإغريقية منعطفاً كبيراً في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، حيث كان الإغريقيون القدماء أصحاب حضارة عظيمة امتدت جوانبها لتشمل مجالات مختلفة إذ كانوا يتمتعون بثروة لا تقدر، وغنى عظيم في كل ما ينتجه العقل والعاطفة والذوق في الفلسفة والرياضة والفلك وعلوم الطبيعة والحياة والطب، في الأدب والتاريخ، في السياسة وفي الفنون الجميلة، و ملؤوا العالم بأفكارهم وآدابهم وعلمهم وأساطيرهم، وكان للثقافة العربية نصيب وافر من كل ذلك، إذ أن الثقافة اليونانية أهم

96 شوقي صيف العصر العباسي الثاني ص ٩١
97 المرجع نفسه ص 208

ثقافة أثرت في الفكر العباسي ولكن عن طريق النقل والترجمة لا عن طريق اختلاط أصحابها بالعرب.

حيث كان الجو الذي ظهرت فيه الحضارة العربية الإسلامية مشبعا بالنظريات اليونانية98، فمنذ أن أغار الإسكندر على آسيا زاحفا بعدها إلى الهند، أخذت العلوم اليونانية تنتشر في الشرق وكان ذلك نتيجة لحرصه على نشر الثقافة اليونانية ومزجها مع ثقافات شعوب المناطق التي فتحها. وظلت هذه الثقافة في هذه المناطق بعد انسحاب جيوش الإسكندر منها ومن الجدير بالذكر أن معظم البلاد التي فتحها الإسكندر غدت، بعد الفتوحات العربية، داخل حدود الدولة العربية الإسلامية لهذا كان من الطبيعي أن تصل الثقافة اليونانية إلى العرب والمسلمين من خلال استلائهم على عدة مدن كانت لاتزال حتى ذلك الوقت مراكز أساسية للثقافة اليونانية منها جند يسابور - حران - الإسكندرية).

فبعد أن فتح العرب هذه المناطق عملوا على ترجمة كل ما وطأته أيدهم من هذا الإرث العلمي العظيم وجاء ذلك لرغبة ، خلفاء ووزراء وعلماء، في الاطلاع على الثقافات القديمة والإفادة منها، ولا سيما أن الإسلام وقف منها موقفاً إيجابياً بغض النظر عن عقائد أصحابها. فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «الحكمة ضالة المؤمن يأخذها ممن سمعها ولا يبالي في أي وعاء خرجت».

ومن ناحية أخرى فقد وجد العرب في علوم اليونان إنتاجاً عقلياً متميزاً، ولابد من استيعابه للانتقال إلى مرحلة التجديد والإبداع 99.

98 98 أنيس المقدسي أمراء الشعر العربي في العصر العباسي دار العلم للملايين بيروت، 1975 ط ١٧ ص ٦٢
99 حمد حسن محمود احمد ابراهيم الشريف العالم الإسلامي في العصر العباسي ص ٢١٥

وقد نقل إلى العربية في هذا العصر، أهم ما ألفه أرسطو، وبعض مؤلفات أفلاطون[100] و معظم مؤلفات عمالقة الطب اليوناني، أمثال أبقراط (القرن الخامس ق.م) وجالينوس (ت 199 م)، وذلك للإفادة منها في مجال الصحة ومعالجة الأمراض وكذلك معظم المؤلفات اليونانية في الهندسة والحساب، مثل مؤلفات إقليدس (ولد عام 330 ق.م) وأبلونيوس (ت 190 ق.م) وغيرهما، وذلك لحاجة الدولة إليها في مسح الأراضي وأعمال الري وحل مشكلات الإرث وحسابات بيت المال والخراج.. إلخ.

ترجم العرب أيضا جل ما كتبه اليونانيون في ميدان الكيمياء منذ أيام خالد بن يزيد ، وكذلك اهتم الخليفة أبو جعفر المنصور بالكيمياء رغبة منه في الحصول على الذهب والفضة، هذا بالإضافة إلى فوائد الكيمياء الأخرى التي تخدم حاجات المجتمع ، وأهتموا كذلك بما كتبه اليونانيون في ميدان الفلك والجغرافيا، وذلك لمعرفة مواقيت الصلاة والأعياد ومعرفة الطالع. وقد حظي المنجمون وعلماء الفلك بمكانة كبيرة في البلاط العباسي، وهذا يفسر لنا أسباب ترجمة كتب بطليموس (ت 170 م) المتعلقة بالجغرافيا والفلك إلى العربية أكثر من مرة.

عموما وكنتيجة لشيوع الفلسفة اليونانية في المناطق كبيرة من الدولة الإسلامية تميز الحركة الدينية بحالة من الجدل الديني، سواء بين المسلمين أنفسهم، أو بين المسلمين وغيرهم من النصارى واليهود، وكانت مجادلات اليهود والنصارى تعتمد على المنطق اليوناني، والفلسفة اليونانية، مما اضطر المسلمين إلى مجادلة غيرهم بنفس أسلحتهم، فعكفوا على المنطق والفلسفة يستخدمونها في أغراضهم، ثم تحولت دراسة الفلسفة بعد ذلك إلى غاية في نفسها.

[100] دي لا سي اوليري مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب ترجمة تمام حسان مكتبة الآنجلو المصرية 1950ص ٢٠١

و رغم تناول المسلمون التراث اليوناني بالترجمة والتحليل والتقويم، إلا أنهم كانوا يتعاملون معه وفق فلسفتهم الإسلامية، ولذلك يلاحظ على مؤلفات بعض علماء المسلمين ميل إلى التوفيق بين الحكمة والشريعة، وخاصة في كتابات ابن رشد، والفارابي، وابن سينا.

ولقد كان للتراث اليوناني والروماني أثر كبير في المسلمين، حيث تأثر المسلمون في تدوينهم للعلوم العربية بالمنطق اليوناني والفلسفة اليونانية، والتي بدت واضحة في كتابات علماء الكلام، والمتصوفين غير أن تأثير الأدب اليوناني كان محدوداً للغاية إذا مقورنا بالعلم والفلسفة ويمكن أن يعزي ذلك إلى الطبيعة العالمية للعلم، والطابع القومي للأدب، فضلاً عن أن الأدب اليوناني أدب وثني فيه آلهة متعددة، وتقديس أبطال، والذوق العربي ذوق مسلم لم يتقبل ذلك النوع من الأدب، وعلى الرغم من ذلك، فقد كان تأثير اليونان واسعاً عميقاً في الفلسفة والعلوم الرياضية والطبية، مما أفاد الحضارة الإسلامية وأضفى عليها طابعاً عالمياً امتد أثره بعد ذلك قرون متطاولة مما أهلها لتكون أساساً لثقافة أوربا الحديثة، ومن أهم الأسباب التي أدت إلى نهضتها الحديثة[101] .

- **الحضارة الهندية**

وهي ثالثة الثقافات التي تعرف عليها العرب في هذا العصر وتأثروا بها، وصلة العرب بالهنود صلة قديمة، فقد كانوا على معرفة بهم منذ جاهليتهم فمن المعلوم أن هناك تعاملا واسعا بين التجار العرب والتجار الهنود وكان العرب يبيعون السلع الهندية بأسمائها الهندية، وقد ورد بعضها في القرآن الكريم مثل (كافور)[102] و (زنجبيل)[103]

[101] شلبي أحمد موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية العصر العباسي الأول مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1959 ط ٦ ص٢٥١

[102] انظر سورة الإنسان الآية 5

[103] أنظر سورة الإنسان الآية ١٧

على أن احتكاك العربية بالعقلية الهندية لم يبلغ كماله إلا بعد الإسلام، لما أتم الله على المسلمين فتح الهند، وزاد اختلاط المسلمين بالهنود، تأثرت الثقافة العربية بالتراث الهندي في مجالات عديدة مثل الأدب والفلك والطب، كما اتصل العرب بالهنود عن طريق التجارة، ومن ناحية أخرى كان للفرس اهتمام كبير بالثقافة الهندية، ولذلك عملوا على نقلها إلى ثقافتهم الفارسية، ومن خلال اطلاع العرب على الثقافة الفارسية، انتقلت كذلك الثقافة الهندية إليهم.

وكان الفتح الإسلامي هو الباب الذي نفذت منه مبادئ الفلسفة الهندية إلى العقل العربي والتي تستند بدورها إلى وأصول فلسفية ظهر تأثيرها بشكل جلي في تاريخ الفكر العربي ومن أبروها الزهد وفناء الروح، وهما العاملان اللذان يميزان الفلسفة الهندية عن فلسفة الإغريق.

وذلك لأن الثقافة الهندية في جملتها ممزوجة بالدين والألوان الشعرية والميل إلى خدمة الإنسان ، وقد انتشرت هذه المبادئ الروحية بانتشار البوذية في البلاد الشرقية من إيران واتصالها بالمسلمين بعد الفتح[104] ".

وقد أخذ العرب عن الهنود علم الرياضيات، وذلك عندما أمر الخليفة "المنصور " بترجمة عدة كتب هندية منها كتاب "السندهند".كما سماء المسلمون، وكتاب "الأركند" و "الأرجيهر"، وبعد هذا دليلاً على شدة تأثير كتب الهنود في تلقي العرب لعلوم الرياضة والفلك .

إلى جانب ذلك نجد أن الأمة الهندية قد اشتهرت بنبوغها في ميدان الحكمة والطب والنجوم والحساب والرياضيات والصناعات والتماثيل والنحت. وفي الفهرست لابن النديم ذكر الكتب الهندية المشهورة والذين نقلوا منها إلى العربية ومنها كتب الطب والخرافات والأسمار والأحاديث والسحر والمواعظ والحكم، وجاء فيه نقلا عن الكندي حكى بعض

[104] أنيس المقدسي أمراء الشعر العربي في العصر العباسي ص ٦٩

المتكلمين بأن يحيى بن خالد البرمكي بعث برجل إلى الهندي ليأتيه بعقاقير موجودة في بلادهم وأن يكتب له أديانهم فكتب له هذا الكتاب[105] ".وورد في الفهرست أيضا عن محمد بن إسحق الذي على بأمر الهند في دولة العرب يحيى بن خالد وجماعة البرامكة وتوشك أن تكون هذه الحكاية إذا أضفناها إلى ما نعرف من أخبار البرامكة واهتمامها بأمر الهند وإحضارها علماء طبها و حكماؤها [106].

كما أن هنالك بعض الأفكار الهندية التي تسربت إلى العرب عن طريق الفرس. فقد اتصل الفرس بالهنود اتصالا وثيقا قبل الفتح الإسلامي وأخذوا الكثير من الثقافة الهندية وترجموها إلى لغتهم. وقد امتد التأثير الهندي إلى الإلهيات والمقالات الأدبية والرياضيات والأدب وفي باب الإلهيات تركت نظرية الهنود في الأرواح وتناسخها وأن الأرواح لا تموت ولا تفنى وإنما هي أبدية الوجود لا سيف يقطعها ولا نار تحرقها ولا ماء يغطيها، ولكنها تنتقل من بدن إلى بدن. فقد تركت نظرية التناسخ هذه أثرا في بعض الفرق الدينية ، وفي بعض قصص ألف ليلة وليلة، وعرف العلماء المسلمون مذهب السمنية[107].. ونبي هذا المذهب اسمه بوداسف وعلى هذا المذهب كان أكثر أهل ما وراء النهر قبل الإسلام وفي القديم. ومعنى السمنية منسوب إلى سمني وهم أسمى أهل الأرض والأديان... وقول لا، عندهم من فعل الشيطان ومذهبهم دفع الشيطان [108] .. لكن الإلهيات الهندية لم تترك إلا آثارا سطحية ولم تنفذ إلى أعماق الفكر العربي.

وكان الطب الهندي من المنابع التي وردها الطب العربي إلى جانب المنبع اليوناني. فكان في بغداد أطباء هنود، وجلب يحيى بن خالد أطباء من الهند مثل منكة وبازيكر وقلبرقل وسندباذ) .[109].

---

[105] ابن النديم الفهرست دار المعرفة للنشر لبنان بيروت ب.ت ص 533

[106] مرجع سابق ، الصفحة نفسها

[107] أحمد حسن محمود احمد ابراهيم الشريف العالم الإسلامي في العصر العباسي ص ٢١٧

[108] الفهرست ٥٣٢

[109] أبو عثمان عمر ابن بحر البيان والتبيين ت. حسن السندوبي مؤسسة هنداوي للنشر 2022 ص78

(وكان في بغداد أطباء هنود، في الوقت ذاته الذي كان فيه أطباء يمثلون الطب اليوناني ومن هؤلاء الأطباء أيام الرشيد صالح بن بهلة)[110]

ويقول صاحب الفهرست، إن من أسماء كتب الهند في الطب الموجودة بلغة العرب، كتاب (مسد) عشر مقالات، أمر يحيى بن خالد بتفسيره لمنكه الهندي ويجري مجرى (الكناش) وكتاب (استانكر) الجامع تفسير ابن دهن كتاب (سيرك) فسره عبد الله بن على من الفارسية إلى العربية، لأنه نقل أولا من الهندي إلى الفارسي [111]

وهكذا تعرف علماء العرب على طب اليونان وفارس والهند من خلال الترجمة واستوعبوه تماما ولكن الأثر العميق الذي تركته ثقافة الهند كان في الرياضيات والفلك. ويبدو أن بعض الرياضيين الهنود وفدوا إلى بغداد في عهد المنصور وأنه كلف أحدهم باختصار كتاب الفلكي الهندي برهمكت)، واستخرج منه كتابا أصبح أساس علم الفلك عند العرب)[112]

وقد أخذ بعض العرب الاصطلاحات الرياضية من الهنود كلفظ (الجيب) في حساب المثلثات، واقتبسوا الكثير من النظريات الهندية في الحساب والهندسة.

كما أخذ العرب عن الهنود نظام الترقيم بدلا من حساب الجمل الذي كانوا يستعملونها، أما الصفر فقد استعمله الهنود أولا ثم عرفه العرب وكذلك كان الهنود يستعلمون سونيا" أو الفراغ لتدل على الصفة، ثم انتقلت هذه اللفظة الهندسية إلى العربية باسم الصفر واستعملها الإفرنج) .

كما أولع العرب بالقصص الهندي، ويقال إن أصل كليلة ودمنة هندي، نقل إلى الفارسية ثم نقل من الفارسية إلى العربية، وقصة سندباد هندية الأصل ترجمت إلى العربية وعدد ابن النديم كتبا كثيرة للهند في الخرافات والأسمار والأحاديث ترجمت إلى العربية.

---

[110] نفس المرجع ٩٢
[111] الفهرست ص ٤٢١
[112] ضحى الإسلام ج١ ص ٢٤٢

وفي باب الحكم أخذوا عن الهند الشيء الكثير فكانت حكمة الهند أقرب إلى روح العرب وأحب إلى أذواقهم، فهي أشبه بالأمثال العربية بجملها القصيرة ومعانيها العميقة ،وامتلأت كتب العصر بالكثير من حكم الهند يقول ابن قتيبة قرأت في كتاب من كتب الهند شر المال ما لا ينفق وشر الإخوان الخاذل، وشر السلطان من خافه البريء، وشر البلاد ما ليس فيها خصب ولا أمن [113]..ولذلك نجد أن الثقافة الهندية قد تركت طابعا مميزا في مجال الأدب. فعربت ألفاظ هندية كثيرة واقتبست بعض الآراء في الأدب و البلاغة)[114]

و خلاصة القول أن مجرى الفكر العربي له روافد ثلاثة كبرى اليونان وهو أهمها ثم الفرس ثم الهند، وأن ما اكتسبه العقل العربي من هذه المصادر قد أيقظ فيه حركة قوية ظهرت ثمارها الفلسفية والعلمية إبان التمدن الإسلامي.

[113] ابن قتيبة عيون الأخبار تحقيق منذر محمد سعيد أبو شعر المكتب الإسلامي ببيروت لبنان ط1 2008 ج ١ ص ٣

[114] ضحى الإسلام ج١ ص ٣٢٣

الفصل الثاني تجليات صورة الآخر في كتاب الحيوان

المبحث الأول : الصورة السلبية

المطلب الأول : صورة الفرس

المطلب الثاني : صورة السودان(الزنوج)

المطلب الثالث : صورة الروم

المبحث الثاني : الصورة الإيجابية

المطلب الأول صورة الأتراك

المطلب الثاني صورة اليونان

المطلب الثالث صورة الهند

❖ تجليات صورة الآخر في كتاب الحيوان

في التاريخ الثقافي العربي يبرز كتاب "الحيوان" للجاحظ كنقطة تحول مهمة تجسدت فيها الروح العلمية والثقافية للعصر العباسي بشكل واضح جليّ ؛ حيث لم يكن هذا الكتاب مجرد تجميع للمعلومات العلمية حول عالم الحيوان فقط، بل كان مرآة تعكس صورة حية للمجتمع الإسلامي في ذلك العصر، فمن خلال تصفح صفحات هذا الكتاب، نجد أنفسنا عائدين بذاكرة التاريخ إلى عالم يعج بالتنوع والثراء الثقافي، حيث يتنوع الموضوع ويتفاوت بين علم الحيوان والجغرافيا والتاريخ والأدب.

ثم إن هذه الموسوعية غير المسبوقة في كتاب الحيوان تدفعنا إلى القول والتأكيد على أن الجاحظ أراد من وراء تسمية كتابه الحيوان المعنى العميق أو أراد المعنى الأكثر عمقا والأكثر شمولا لهذه الكلمة، وهو "الحياة" بمفهومها الشامل الممتد عبر مجالاتها المتعددة ؛ إنسانها، ونباتها، وحيوانها . مركزا أو صارفا وموجها القول بالدرجة الأولى للحيوان وعنه، باثاً كل ما يريد قوله عن الإنسان من خلاله.

ومن هنا يظهر لنا الجاحظ كرحالة مخضرم ، حيث أخذنا معه في رحلة ممتعة ومثيرة إلى عوالم مجهولة ومختلفة وثق لنا خلالها لحظة تاريخية من اللحظات التي تألقت فيها الأمة حضارياً ، كما نقل لنا ما تخبئه في أعماقها وما تسكت عنه مخلدا بين صفحات هذا الكتاب كل المظاهر الاجتماعية والثقافية للمجتمع الإسلامي في ذلك العصر من عادات وتقاليد وأخلاق ، واضعا بذلك كل فآت المجتمع العباسي تحت الدراسة والتمحيص دونما إقصاء أو تمييز ، فنراه يتحدث عن حياة الأمم والأقوام غير العربية ؛ منقِّباً في الحقب الأولى من تاريخ تلك الأمم ، متمثلاً بروح العالِم المحايد ، كاشفا عن ثقافات تلك الأمم وعاداتها وتقاليدها وطقوسها وكثير من علومها.

وعليه فإن الجاحظ أولى اهتماما كبير بالآخر في مختلف كتاباته وأعماله ؛ فقد كان حضور الآخر ومحاولة تمثيله ثقافيا شغلا شاغلا للجاحظ في العديد من كتبه ومؤلفاته ، حيث تضمنت مختلف هذه الكتب -ولا سيما كتاب الحيوان - صوراً متباينة لأمم وشعوب مختلفة ، قدم من خلالها الجاحظ بعض هذه الأمم تقديماً يغلب عليه الطابع الإيجابي ، في حين صور أمما أخرى بصورة سلبية يغلب عليها طابع الانتقاد والتنقيص .

وحتى لا يكون القول قولًا نظريًا مجردًا، سيكون الدليل من الكتاب نفسه، والمدارسة لهذا الكتاب ستكون لاستخراج مظاهر الحياة للأقوام غير العربية، والتعرف -ما سمح لنا الجاحظ في "حيوانه" - إلى كيفية تمثيله وتصويره لهذه الأقوام متأرجحا بين الإيجابية والسلبية بأسلوب سلس وفريد ظاهر التضاد والتنافر وباطنه التناسق والاتساق.

- **الصورة السلبية**

لم تخل أي من الامم التي تصدرت في تاريخ البشرية من نرجسية ثقافيه وتمحور حول الذات. ولم يكن العرب استثناء من ذلك؛ فقد عاشوا بعد ظهور الإسلام قرونا من الفتح والعزة والسياسة والتصدر ، وفي ظروف كهذه، من المعتاد أن تنمو نرجسية الريادة، وتتجسد في رؤية الذات والآخر. وتعبر هذه النرجسية الجمعية عن ذاتها أحيانًا في شكل إيجابي، مثل الاعتزاز بالذات والتاريخ، وأحيانًا بصورة سلبية في شكل تعال على الأمم الأخرى، وتشكيل صور نمطية عنها.

ورغم أن الجاحظ كان ابنا بارا للحضارة الاسلامية التي انفتحت على الآخر، فكانت القيمة العليا فيها للتقوى التي هي نقيض الكراهية والانغلاق. و استطاعت كتبه ان تقدم صورة الانفتاح المسلم على الآخر إلا أن هذه الصورة تسمت في كثير من الأحيان بالتوتر الذي كان نتيجة حتمية لمسببات عديدة أساسها علو غير واعي (للأنا) في مقابل (الآخر) فرغم أن الجاحظ يزعم في مقدمة كتابه الحيوان انه تستوي فيه رغبة الأمم وتتشابه فيه العرب بالعجم إلا أنه وكغيره من أدباء عصره تغلب عليه في مرحلة من المراحل اللحمة العصبية أو على الأصح نرجسية الريادة ؛ فتتعانق مع بعض الأسباب والمسببات التي منها ما هو موضوعي هدفه الإحاطة بالأمة المدروسة من كل جوانبها ومنها ما هو شخصي يتمثل في أطماع مادية أو أهداف سياسية راسماً بذلك صورة منكرة بأسلوب ساخر لبعض الأمم التي كان لها حضورها القوي وبصمتها التي لا تمحى في التاريخ العربي الإسلامي وفي ما يلي سنحاول أن نذكر أبرز الأمم التي قدم لها الجاحظ صورة سلبية نمطية

- **صورة الفرس**

نلاحظ أن الجاحظ من خلال كتاباته قدم تمثيلا للفرس بصورة مكتملة، فلم يحصر صورة الفارسي في كتاب البخلاء في البخل وإنما أضاف لها صفة حميدة وهي البلاغة، فيبدو للوهلة الأولى أن هذا التصور يحمل تناقضا في آرائه، فكيف يجمع الإنسان بين خصلتين أو ميزتين إحداهما ذميمة بالنسبة للجاحظ والأخرى خصلة فضيلة وهي البلاغة وكأنما الجاحظ قدم تمثيلا تاما للفرس؛ فقد قدم جزءاً منه : في البخلاء فهم أشد بخلا من حيواناتهم ، وفي البيان والتبيين نجد أن الصورة تأخذ في الانكشاف والوضوح، فهذا الفارسي بليغ يدافع عن فكرته ومذهبه في الحياة بلغة راقية تغطي العيب الأول وهو البخل ؛ وبين الصورة السلبية في البخلاء والصورة الإيجابية في البيان وتبيين يأتي كتاب الحيوان ليكمل القطعة الناقصة من الأحجية ، إلا أن الصورة فيه بقيت متذبذبة بين هذا وذاك ورغم الشفافية والحيادية والواقعية التي حاول الجاحظ أن يتحلى بها في كتابه هذا والتي نلمسها في تعريفه لكتابه بقوله: "وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم، وتتشابه فيه العرب والعجم لأنه وإن كان عربيا أعرابياً، وإسلاميا جماعياً، فقد أخذ من طرف الفلسفة، وجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة"[115]

ورغم كل ذلك اعترف أبو عثمان بالفضل الكبير لهذه الأمة على المجتمع العربي ، وحاول أن يكون ناقلا أمينا حريصا على امتلاك علمها ، وان يأخذ عنها ما يستحق النقل ؛ ولا أدل على ذلك من استشهاده بأقوالهم في أكثر من موضع ، فمثلا نجد أنه حينما بدأ بتصنيف الحيوان أرجع ذلك لما قالته الفرس في هذا المجال ، فقال «وزعم الفرس أن الحيوان كله الذي يلد حيوانا مثله ما يمشي على أربع قوائم، لا تخلو أجناسها من المعز والضأن،

[115] عمر بن بحر (الجاحظ) الحيوان ت عبد السلام محمد هارون ط2 دار إحياء التراث العربي ج1 ص 11

والجواميس عندهم ضأن البقر، والبخت عندهم ضأن الإبل، والبراذين عندهم ضأن الخيل» .[116]

كما أظهر الفرس في صورتها الرافدة للثقافة العربية في شتى مجالاتها معترفا بتأثيرهم على العرب في ونقلهم من البداوة إلى الحضارة فيقول في ذلك "وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون، والكلام المقفى، وكان ذلك هو ديوانها. وعلى أن الشعر يفيد فضيلة البيان، على الشاعر الراغب، والمادح، وفضيلة المأثرة، على السيد المرغوب إليه، والممدوح به "[117]

ثم يقول: "إن العرب أحبت أن تشارك العجم في البناء، وتنفرد بالشعر، فبنوا غُمدان، وكعبة نجران. وقصر مارد، وقصر مأرب، وقصر شعوب، والأبلق الفرد،"[118]

غير أننا نجد أن حميته العربية تعود للتأثير عليه ، لتظهر تلك العصبية والعداوة للعنصر الفارسي جلية في كتابه ، فيعلل الجاحظ سبب هذه العداوة المتوارثة من القوم لهذه الأمة التي احتضنت كل الأمواج البشرية إلى تلك العصبية البغيضة ، فقال : « وربما كانت العداوة من جهة العصبية، فإن عامة من يرتاب بالإسلام إنما كان" أول" ذلك رأي الشعوبية والتمادي" فيه"، وطول الجدال المؤدي إلى القتال، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحب من أبغض تلك الجزيرة ، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام؛ إذ كانت العرب هي التي جاءت به، وكانوا السلف

"والقدوة" . »[119]

وتراه حتى يرفض بعض الآراء حول بعض الحيوانات رابطا إياها بالصراع العرقي القائم بين العرب والفرس ومتهما أصحابها بأنهم إنما أدلوا بها للمساس من العرب فقط لا لغاية

[116] الحيوان ج 1 ص152
[117] نفس المرجع ص 72
[118] نفس المرجع و نفس الصفحة
[119] الحيوان ج 7 ص 220

علمية كما يزعمون « وزعم لي سلمويه وابن ماسويه متطببا الخلفاء، أنه ليس على الأرض جيفة أنتن نتنا ولا أثقب ثقوبا من جيفة بعير، فظننت أن الذي وهمهما ذلك عصبيتهما عليه، وبغضهما لأربابه، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم ، هو المذكور في الكتب براكب البعير» .[120]

و بغض النظر عن هذا كله نلاحظ من خلال هذا الكتاب أن الجاحظ تحدث عن حياة الأمة الفارسية في مناحيها وجوانبها المتعددة متناولا حياتهم وعاداتهم وملوكم وتاريخهم ومن أبرز ما أورده من عاداتهم ؛ أغربها ، كتقديسهم للفيل والذي يمكن ان يكون موروثا من موروثات عقيدتهم السابقة ؛ إذ كان عندهم رمزا للعقيدة والتكبر وللعرش ولهيبة الملوك « وتقول الفرس: أعطي كسرى أبرويز ثماني عشرة خصلة لم يعطها ملك قط ولا يعطاها أحد أبدا؛ من ذلك أنه اجتمع له تسعمائة وخمسون فيلا، وهذا شيء لم يجتمع عند ملك قط » .[121]

فلهذا الحيوان عندهم حضور ومكانة ربما لم يدانِها حيوان غيره فهو كما أشار الجاحظ رمز للتكبر ورمز للعرش والهيبة، وتوطيد لحكم الملك. «وذكر الهيثم بن عدي، عن أبي يعقوب الثقفي، عن عبد الملك بن عمير قال: رأيت في ديوان معاوية "بعد موته" كتابا من ملك الصين "فيه من ملك الصين": الذي على مربطه ألف فيل وبنيت داره بلبن الذهب والفضة ».[122]

ويمضي الجاحظ في الحديث عن تباهي القوم باقتناء هذا الحيوان والتفنن في صنوف الافتخار به "قال": «وكل ملك" كان" يصل إلى أن تكون عنده فيلة فإنه كان لا يدع

[120] الحيوان ج1 ص246
[121] نفسه ج7 ص 181
[122] نفسه ج7 ص 113

الاستكثار منها والتجمل بها، والتهويل بمكانها عنده، ولا يدع ركوبها في الحروب، وفي الأعياد، وفي يوم الزينة.» [123]

ويقول أيضا في شرف الفيل «قالوا: والفيل أشرف مراكب الملوك، وأكثرها تصرفا».[124]

ومن أغرب عادات بني فارس و التي أوردها الجاحظ في هذا المقام ؛ أنهم كانوا يقومون بتدريب الحيوانات للسجود لملوكهم وذلك لشدة تعظيمهم لهم ويقال أن الفيل كان أكثر الحيوانات براعة وإتقانا للسجود وربما لهذا السبب حظي بهذه المكانة الرفيعة في قلوبهم .

ونرى الجاحظ ينقل في كتابه هذه الظاهرة قائلا: « وزعموا أن أول شيء يؤدبونه به السجود للملك؛ قالوا: خرج كسرى أبرويز ذات يوم لبعض الأعياد، وقد صفوا له ألف فيل، وقد أحدق به بها ثلاثون ألف فارس، فلما بصرت به الفيلة سجدت له فما رفعت رأسها حتى جذبت بالمحاجن وراطنها الفيالون، وقد شهد ذلك المشهد جميع أصناف الدواب: الخيل فما دونها وليس فيها شيء يفصل بين الملوك والرعية، فلما رأى ذلك كسرى قال: ليت أن الفيل كان فارسيا ولم يكن هنديا، انظروا إليها ولسائر الدواب، وفضلوها بقدر ما ترون من فهمها وأدبها . [125]

ولم يسلم الفيل من تصنيفات ابو عثمان والذي عده رمزا للفرس لماله من مكانة عندهم فنجده يورد محادثة بين إعرابي وأحد كساسرة الفرس يقارن فيا بين الفيل الفارسي والجمل العربي -و جاء في نص المحاورة ."وقد قال الأعرابي الذي أدخل على كسرى ليعجب من جفائه وجهله، حين قال له: أي شيء أبعد صوتا قال: الجمل. قال: فأي شيء أطيب لحما ؟ قال: الجمل." قال فأي شيء ينهض بالحمل؟ قال: الجمل". قال كسرى: كيف يكون الجمل أبعد صوتا ونحن نسمع صوت الكُركي من كذا وكذا ميلا؟ قال الأعرابي: ضع الكركي في مكان الجمل، وضع الجمل في مكان الكُركي حتى يعرف أيهم أبعد صوتا. قال:

---

[123] نفسه 101
[124] الحيوان ج 7 ص 182
[125] نفسه ص 206-205

وكيف يكون لحم الجمل أطيب من لحم البط والدجاج والفراخ والدراج والنواهض والجداء قال الأعرابي يطبخ لحم الدجاج بماء وملح، ويطبخ لحم الجمل بماء وملح، حتى يعرف فضل ما بين اللحمين. قال كسرى: فكيف تزعم أن الجمل أحمل للثقل من الفيل والفيل يحمل كذا وكذا رطلا؟ قال الأعرابي: ليبرك الفيل ويبرك الجمل، وليحمل"على" الفيل حمل الجمل، فإن نهض به فهو أحمل للأثقال. قال القوم: ليس في استطاعة الجمال النهوض بالأحمال ما يجبلها فضيلة" على حمل ما هو أثقل ولعمري، إن للجمل بلين أرساغه وطول عنقه لفضيلة في" النهوض بعد البروك، فأما نفس الثقل فالذي بينهما أكثر من أن يقع بينهما الخيار». [126]

ولم يكتفي بذلك فهاهو ينحى بالأمر منحا دينياً فيورد الفيل ضمن الحيوانات المذمومة وذلك عندما عرض رأي الخضر عليه السلام في الدواب، ولا ندري هل كان هذا ردا من أبي عثمان على ما يذهب إليه الفرس من عصبية دينية فهو يروي في الحيوان، "أبو عقيل السواق، عن مقاتل بن سليمان، قال: قال موسى للخضر: أي الدواب أحب إليك، وأيها أبغض؟ قال: أُحب الفرَس والحمار والبعير؛ لأنها" من "مراكب الأنبياء،" وأبغض الفيل والجاموس والثور. فأما البعير فمركب هود وصالح وشعيب والنبين عليهم السلام. وأما الفرس فمركب أولي العزم من الرسل وكل من أمره االله بحمل السلاح وقتال الكفار ، وأما الحمار فمركب عيسى بن مريم وعزير فكيف لا أحب شيئاً أحياه االله بعد موته قبل الحشر....وأبغض الفيل لأنه أبو الخنزير، وأبغض الثور لأنه يشبه الجاموس، وأبغض الجاموس لأنه يشبه الفيل [127]

ورغم إطالتنا الملحوظة في أمر الفيل إلا انه لا يسعنا أن ننتقل من هذا الموضوع إلى غيره دون أن نذكر كيف أن ملوك الفرس كانوا يغالون في تدريب الفيلة ثم الاعتماد عليها لتكون أحد أسلحتهم الفاتكة والتي لا يتوارون عن استخدامها في قمع أفراد الرعية المسحوقة ، إذ كانوا يدربونها على دوس الناس بأقدامها لتكون العقاب الرادع لكل من تسول له نفسه

[126] الحيوان ج7 ص 194-1195
[127] نفسه ص 204

الخروج عن أمرهم وهنا نجد الجاحظ يعرض لنا هذه العادة ناقدا على القوم هذا السلوك البغيض الجائر "وكانت الأكاسرة- وهي الكسور- تؤدبها وتعودها وطأ الناس وخبطهم إذا ألقي تحت قوائمها ببعض أهل الجنايات، فكان ممن رمي به تحت أرجل الفيلة النعمان بن المنذر ، وفي ذلك يقول هاني بن مسعود حين يرثيه ، ويذكر قتل كسرى إياه:

إن ذا التاج، لا أبا لك، أضحى

وذرى بيته نحور الفيول

إن كسرى عدا على الملك

النعمان حتى سقاه أم البليل

قد عمرنا وقد رأينا لدى

الحيرة في السيلحين خير قتيل [128]

ومن الصور العجيبة والطباع الغريبة في المأكل ينقل لنا أبو عثمان صوراً متعددة عن الفرس نذكر منها أكلهم ديدان الجبن "وخبرني كم شئت من الناس، أنه رأى أصحب الجبن الرطب بالأهواز وقراها يأخذون القطعة الضخمة من الجبنة الرطب، وفيها كوكاء الزنابير، وقد تولدت فيها الديدان، فينفضها وسط راحته، ثم يقحمها فيه، كما يقمح السويق والسكر، أو ما هو أطيب منه" .[129]

وفي حديث الجاحظ عن الضفادع يقول "والضفادع تعظم ولا تسمن، كالدراج والأرانب، فإن سمنهما أن يحتملا اللحم. وفي سواحل فارس "ناس" يأكلونها.[130]

[128] الحيوان ج 7 ص 113-114
[129] نفسه ج 4 ص 46
[130] نفسه ج 5 ص 530

وهنا أيضا تظهر عصبية الجاحظ وانحيازه غير الموضوعي لبني جنسه فيقول منتقدا عادات الفرس الغريبة في الأكل: الفرس تعيب على العرب أكلهم الضب بينما هم يأكلون الذبان وغيره قال الهلالي:

وعلج يعاف الضب لؤم وبطنة

وبعض أدام العلج هام ذباب"[131]

ورغم ما أورده الجاحظ في حيوانه من عادات غريبة للفرس إلا أنه في المقابل أورد غيرها من العادات الإيجابية التي استحسنها العرب وتأثروا بيها مثل عادة مواساة المحزون والتخفيف عنه وزيارة المريض التي انتقلت من ملوك الفرس إلى ملوك العرب ، ولأن الشعر سجل الأيام والأحداث؛ فكان الشعراء يخلدون كل عادة مكتسبة وكل حادثة يومية لتمر عبر الأيام وتتناقلها الأجيال بصرف النظر عن أهمية ذلك الحدث. "ومازالت ملوك العجم تلهي المحزون بالسماع، وتعلل المريض، وتشغله عن التفكير حتى أخذت ذلك ملوك العرب عن ملوك العجم. ولذلك قال ابن عسلة الشيباني:

وسَماعِ مُدْجِنَةٍ تُعلِّلُنا حتَّى نَنامَ تَناوُمَ العُجْمِ

لَصَحَوْتَ والنَّمَرِيُّ يَحْسِبُها عَمَّ السِّماكِ وخالَةَ النَّجْمِ[132]

وكذلك من العادات التي تأثر بها بعض مولك العرب هو شغف الأكاسرة الكبير بالصيد "وزعموا- وكذلك هو في كتبهم- أن ملوك فارس؛ كانت لهجة بالصيد؛ إلا إن بهرام "جور"

[131] الحيوان ج6 ص 92

[132] الحيوان ج1 ص286

هو المشهور في ذلك...قالوا: وكان الملك منهم إذا أخذ عيرا أخدريا ، وغير ذلك؛ فإن وجدوه فتيا وسمه باسمه "27

ثم يعود ليعرض لنا صوراً من طرق القوم في الطب وأساليبهم في المعالجة فمع تعظيمهم للفيل فإنهم يستخدمونه في أغراض متعددة، فتجدهم يصنعون من نجوه أدوية يؤمنون بفاعليتها ويستخدمونها موقنين بفائدتها "قالوا: وإذا احتملت المرأة شيئاً من نجو الفيل بعد أن يخلط به شيء من عسل فإنها لا تحبل أبداً ، قالوا: ومما يؤكد ذلك أنك لو علقت على شجرة من نجوه شيئاً، إن تلك الشجرة لا تحمل في تلك السنة...[133]

وهكذا ينقل لنا الجاحظ من خلال الحيوان شيئاً من عادات تلك الأمة التي شكلت عنصرا مهما وأساسيا من عناصر تكوين مجتمع عصره ، فيطلعنا على بعض ما اعتادوه في مأكلهم وملبسهم وحتى رفاههم وطرقهم في التسلي وخرافاتهم ، راسما بذلك في أذهاننا صورة تراوحت بين السلبية والإيجابية وإن طغت السلبية عليها فربما يكون ذلك نتيجة لعوامل عدة فرضت سيطرتها على رؤية الكاتب لتنعكس بشكل جلي على كتاباته.

[133] الحيوان ج7 ص 87

- **صورة الزنوج**

يمكن القول أن الصورة التي قدمها الجاحظ في كتابه الحيوان عن الآخر الزنجي هي أسوء صورة يمكن أن يقدمها عن أمة من الأمم ، والأكثر سلبية ومهانة ، وليس ذلك بالمستغرب فلطالما نظر العرب نظرة دونية للزنجي إذ يحتل بالنسبة لهم أدنى درجات السلم الاجتماعي، فهو العبد الخادم لدى بعضهم مهما كان متميزا، وقد وثق لنا الجاحظ هذه النظرة في البيان والتبيين عبر مشهد مدح فيه أحد الشعراء الزنوج عبد الله بن جعفر، فأجزل له من كل صنف، فقيل له: أتصنع هذا بمثل هذا العبد الأسود فقال: أما والله لئن كان جلده أسوداً، فإن ثناءه أبيض، وإن شعره لعربي ، وقد استحق بما قال أكثر مما نال، وإنما أخذ عنا رواحل تنضى وثيابا تبلى، ومالا يفنى، وأعطى مديحا يروى، وثناء يبقى ". [134]

ولم يقتصر الأمر على العرب فقط بل سادت هذه النظرة الدونية للآخر الزنجي المجتمع الإسلامي ككل، وفي جميع مكوناته وطوائفه ، ورغم ذلك لم نجد من قبل من الكتاب والمثقفين من نحى نحو الجاحظ وصورهم على هذا النحو السيء فقد عامل المجتمع أنداك السود بنوع من التجاهل وليس بالعداء أو الاحتقار والتفاخر عليهم ، إذ لا نكاد نحصل في المدونة الثقافية العربية على شعر أو نثر ما فيها انتقاص للسود أو مدح لهم .

خلافا للجاحظ الذي أبدى النظرة الدونية للآخر، وبين أنها لا تعتمد على الشكل الخارجي (لون البشرة) فقط، وإنما تتناول كينونة الإنسان فانتقاده للسود لم يقتصر على لونهم بل تعداه إلى صفاتهم وعاداتهم ومقدرته اللغوية، وغير ذلك ....

ومن المفارقة المنفرة انه عمل على عقد مقارنات لا نهائية بين الزنوج والحيوانات فهو هنا عندما يتحدث عن صفات الحيوان فإنه سريعا ما يقرن تلك الصفات بالزنوج في حين أنه وصف الأمم الأخرى التي يزدحم بها المجتمع العباسي بمعزل عن مقارنتها بصفات الحيوان.

[134] البيان والتبيين ج1 ص 261

فمثلا نجد أنه عندما يتحدث عن أنواع الحمام تأتي صورة الزنج لتوضيح المقال فيقول تحت عنوان القوة في السود من الحيوان: "وكل شيء من الحيوان إذا اسود شعره أو جلده، أو صوفه، كان أقوى لبدنه ولم تكن معرفته بالمحمودة ، وزعم إن الحمام الهدّاء إنما هو في الخضر والنمر، فإذا اسود الحمام حتى يدخل في الاحتراق صار مثل الزنج الشديد البطش، القليل المعرفة" [135]

ويمضي الجاحظ في مقارناته ، فها هو يقارن الزنج بالكلاب في صفة وإن كانت إيجابية فقد غلفت بالسلبية من جميع نواحيها فيقول "و لا يشك الناس أن ليس في السبع أطيب أفواها من الكلاب، وكذلك كل إنسان سائل الريق سائل اللعاب ، والخلوف لا يعرض للمجانين الذين تسيل أفواههم.... كذلك. يقال، إن أطيب الناس أفواها الزنج، وإن كانت لا تعرف سنون ولا سواك"[136]

وربما يرى البعض أن هذه المقارنة ماهي إلا مأثرة للزنج لا العكس وذلك إذا ربط الأمر برمزية الجاحظ في حيوانه وذلك في المناظرة التي عقدها بين الكلب والديك إذ أن الكلب يرمز للعرب والديك هو من رموز العجم فهنا نقول بأن الجاحظ يمتدح الكلاب رمز العروبة لذلك فهو هنا يكرم الزنج عندما يشبههم بالكلاب من الحيوان ولكن، ما يجعلنا لا نرجح هذا الرأي هو تشبيهه للزنج في الفقرة ذاتها بالمجانين من الناس.

وفي موضع آخر نجد الجاحظ يظهر صورة قبائل الزنج حين تأتي للفخر بنفسها وتبين مواطن الفخر عندها ؛ مشبها لهم بالنمل والكلاب ؛ الذين لا فخر لهم سوى الكثرة والشدة "قالوا: والزنج صنفان، قبيلة زنجية فوق قبيلة، وهما صنفان: النمل والكلاب،

[135] الحيوان ج2ص79
[136] نفس المرجع ج2 ص 154

فقبيلة هم الكلاب، وقبيلة هم النمل، فخر هؤلاء بالكثرة، وفخر هؤلاء بالشدة. وهذان الاسمان هما ما اختاراهما لأنفسهما ولم يكرها عليهم". [137]

وقد يقول قائل أن الجاحظ هنا لم يقصد الانتقاص من الزنج أو الحط من شأنهم في تشبيهه لهم بالحيوانات فالعرب تسمي بأسماء الحيوانات وهي تألف ذلك في قبائلها وأفخاذ القبائل إلا أن تبرير الجاحظ ودفاعه عن نفسه في قوله " وهذان الاسمان هما ما اختاراهما لأنفسهما ولم يكرها عليهما" يوضخ أن الأمر لم يكن عفويا وأن الجاحظ عالم بما قال .[138]

ويمضي الجاحظ في إظهار الزنج بهذه الصورة السلبية ويصبغ عليهم الصفات الذميمة فيشبههم بالحمير ويقول بأنهم يشبهون الحمير في كل شيء "وزعم؟ لي بعض أهل النظر، أن الزنج أشبهوا الحمير في كل شيء [139]

ولم يتوقف الأمر هنا فاهو يتحدثَ عن رائحة التيوس الكريهة تلك الرائحة المعروفة بنتنها فلا لها يجد نظيرا إلا عند الزنج "وجلود التيوس، وجلود آباط الزنج، منتنة العرق، وسائر ذلك سليم"[140]

إذاً فالصورة التي ظهرت لهذه القبائل أو الجماعات الزنجية في حيوان الجاحظ لم تعد أن تكون صفات ذميمة تحمل مدلولات وضيعة سواء على المستوى البصري للصورة في اللون أم على المستوى الشمي في الرائحة أم على المستوى الحركي في الشدة.

لكن ما يضع الدارس في حيرة من أمره هو ذلك التناقض الكبير بين الصورة التي يعرضها الجاحظ للزنج هنا وبين صورتهم في رسالتها الموسومة ب"فخر السودان على البيضان" التي ذكر فيها الكثير من مناقب الزنوج ودورهم الروحي الإسلامي، وإعزاز النبي صلى الله

[137] الحيوان ج2 ص 181
[138] الحيوان ج2 ص 181
[139] الحيوان ج5 ص 116
[140] الحيوان ج5 ص 466

عليه وسلم والصحابة لهم، وبين فضائلهم الحضارية الأخرى مثل دورهم في تاريخ نشر الرسالة الدينية، ودورهم في مجال العمران؛ ودون فيها ما سمع من أقوال عن السودان، أو محاورات ومناظرات عنهم، أو أحاديث وقصص، وما يروى عنهم من نوادر وبالغ في ذلك حتى ذهب البعض إلي أنه مشترك معهم في الأصل

وهو الرأي الذي لم يشترك معهم فيه الدارسون لحياة الجاحظ والذين رجح أغلبهم أن هذا التناقض الكبير ما هو إلا نتاج لأسباب سياسية بحته حيث أن الدارس المتأمل لرسالة فخر السودان على البيضان يلاحظ أن الجاحظ لم يكتبها من تلقاء نفسه وإنما طلب منه ذلك وقد ذكر ذلك هو بنفسه في مقدمة كتابه إذ يقول فيها (تولاك الله وحفظك وأسعدك بطاعته وجعلك من الفائزين برحمته ، ذكرت - أعاذك الله من الغشّ - أنك قرأت كتابي في محاجة الصرحاء للهجناء وردِّ الهجناء وجواب أخوال الهجناء وأني لم أذكر فيه شيئاً من مفاخر السودان فاعلم حفظك الله أني إنما أخرت ذلك متعمداً. فقد كتبت لك ما حضرني من مفاخرهم)[141]

إذاً ما هذه الرسالة إلا تلبية لطلب شخص لم يسمه الجاحظ وربما لم يأتي هذا الطلب بشكل اعتباطي فبالنظر إلا الفترة التي كتبت فيها هذه الرسالة والأحداث التاريخية المصاحبة لها نجد أنها كتبت بعد ثورة الزنوج الأولى وقبل اندلاع ثورة الزنوج الثانية أو الكبرى أي 255هـ ، فمن اجل إسكات هذه الفئة والحد من الثورة قامت السلطة بإدراجها ضمن خطابها التاريخي فبعدما كانت جزء من المجتمع الحيواني، عمدت السلطة ذاتها التي قامت بعملية الإقصاء، إلى تغيير سياساتها والتراجع عنها ودمجها في المجتمع عن طريق منحها حق تمثيل ذاتها في المجتمع امتصاصا للغضب والعصيان الذين ظهرا في هذه الحقبة الزمنية، وبما أن الجاحظ من كتاب الديوان فهو البوابة التي تسمح بدخول الخطابات وتصديرها للعامة فهو إذا من أجهزة الدولة الأيديولوجية Ideological state

[141] أبو عثمان عمر ابن بحر رسائل الجاحظ ت.محمد طه ابن حاجري دار النهضة العربية بيروت 1937ج 1 ص 178

apparatus بحيث ينتج خطابات تتناسب والأيديولوجيات المهيمنة في المجتمع فكتاب الديوان هم من يقومون بتصدير الأيديولوجية التي ترغب فيها السلطة.

- **صورة الروم**

تظهر صورة الرومان في التراث العربي عامة بشكل متباين، فمن ناحية كان للرومان تأثير كبير على الحضارة العربية الإسلامية، و من ناحية أخرى، يرى بعض الباحثين أن الرومان كانوا من الحضارات الغازية لبلاد العرب، وأن الحضارة العربية الإسلامية قد تأثرت بهم سلبًا في بعض الجوانب. ويرى آخرون أن الرومان كانوا من الحضارات التي مرت على المنطقة دون ترك بصمة كبيرة في التراث العربي مقارنة بحضارات أخرى كالفرس والإغريق

ويبدو أن الجاحظ نحا نوح أصحاب الرأي الأخير إذ تظهر صورة الروم لديه متأثرة بالسياق التاريخي والثقافي للعصر الذي عاش فيه وبتجاربه الشخصية والفكرية لذا فليس من المستغرب أن تطغى عليها السلبية فنجده مثلا في كتاب الحيوان ينتقد ازدواجية الروم الغير مبررة فيعبر الجاحظ بأسلوب الساخر عن استغرابه من التناقض بين الصفات التي يدعيها الروم لأنفسهم من رحمة ورأفة وإنسانية وبين سلوكهم الوحشي والقاسي و يظهر ذلك إبان حديثه عن الخصاء والذي أعاد أصله للروم ، فيقول في ذلك متعجبا ؛ « وكل خصاء في الدنيا فإنما أصله من قبل الروم ، ومن العجب أنهم نصارى ، وهم يدعون من الرأفة والرحمة ، ورقة القلب والكبد ، ما لا يدعيه أحد من جميع الأصناف ، وحسبك بالخصاء مثلة ! وحسبك بصنيع الخاصي قسوة ! ولا جرم أنهم بعثوا على أنفسهم من الخصيان ، من طلب الطوائل وتذكر الأحقاد ، مالم يظنوه عندهم ، ولا خافوه من قبلهم»[142] .

[142] الحيوان ج١ ص ١٢٤

يعبر الجاحظ عن دهشته من أن الروم كانوا يدينون بالمسيحية، التي تعتبر ديانة تعبر عن الرحمة والرفق، في حين يصفهم بالقسوة والغلو في بعض تصرفاتهم.

ينتقد الجاحظ أيضًا سلوك الروم في استغلال الخصيان واستغلال الضعفاء لتحقيق مصالحهم الشخصية ويرى هذه التصرفات وغيرها من الممارسات الظالمة والمتعسفة التي مارسها الرومان طيلة فترة حكمهم هي ما أججت الأحقاد في نفوس الآخرين اتجاههم فأصبح أغلب من يغزوهم يغزوهم انتقاما لنفسه قبل كل شيء ، وأعاد ضرب المثل بالخصيان مجدد (فنسك الخصي غزو الروم ، لما أن كانوا هم الذين خصوهم ، ولُزُومُ أَذَنة والرِّباطُ بِطَرَسُوسَ وأشباهها . فظنّ عند ذلك أهل الفراسة أَنَّ سبب ذلك إنما كان لأن الروم لما كانوا هم الذين خصوهم ، كانوا مغتاظين عليهم ، وكانت متطلبة إلى التشفي منهم ، فأخرج لهم حب التشفي شدَّة الاعتزام على قتلهم ، وعلى الإنفاق في كلِّ شيء يبلغ منهم ، إن هذا السلوك يمكن أن يكون سببًا لغضب الروم وانتقامهم على الخصيان). [143]

ورغم كل شيء لم تنحصر صورة الروم لدى الجاحظ في الجانب السلبي بل كانت متباينة فكعادته دائما ما يبقى متأرجحاً في كتاباته بين الايجابية والسليبة إلى الحد الذي قد يصل إلى التناقض في بعض الأحيان فبرغم من تأثير سياقاته المختلفة على كتاباته لكنه لا يتورى عن ذكر المناقب إن وجدت فبالرغم من تحامله الواضح وربما المبرر على الروم نجده في الوقت ذاته يبدي إعجابه ببعض صفاتهم كالذكاء والخبث والحنكة ، وأنسب مثل يمكن أن نستدل به في هذا المقام هو ما أورده الجاحظ من دهاء ملك الروم والذي يبدو جليا في القصة التي نقلها الجاحظ عن أبي الحسن والذي روى بدوره عن سلمة بن خطاب الأزدي ، أنه قال : لما تشاغل عبد الملك بن مروان بمحاربة مصعب بن الزبير ، اجتمع وجوه الرُّوم إلى ملكهم فقالوا له : قد أمكنتك الفرصة من العرب ، بتشاغل بعضهم مع بعض ، لوقوع بأسهم بينهم ، فالرأي لك أن تغزوهم إلى بلادهم ، فإنك إن فعلت ذلك نلت حاجتك ، فلا تدعهم حتى تنقضي الحرب التي بينهم فيجتمعوا عليك ! فنهاهم عن ذلك وخطأ رأيهم ، فأبوا عليه إلا أن يغزوا العرب في بلادهم . فلما رأى ذلك منهم أمر بكلبين

[143] الحيوان ج١ ص١٧٣-١٧٤

فحرش بينهما ، فاقتتلا قتالا شديداً ، ثم دعا بثعلب فخلاه ، فلما رأى الكلبان الثعلب ، تركا ما كانا فيه ، وأقبلا عليه حتى قتلاه ، فقال ملك الروم : كيف ترون !؟ هكذا العرب ، تقتتل بينها ، فإذا رأونا تركوا ذلك واجتمعوا علينا ، فعرفوا صدقه ، ورجعوا عن رأيهم[144] .

هذا المقتطف يعكس استراتيجية ملك الروم للتعامل مع العرب في ذلك الوقت ويوضح النص كيف حاول ملك الروم استغلال التوترات الداخلية في العرب لصالحه.

كما يظهر هنا ملك الروم فهمه السليم لطبيعة العرب وتفاعلاتهم، وبالتالي يحذر من التدخل الروماني في شؤونهم الداخلية.

يظهر النص أيضًا كيف أن الروم كانوا يعتمدون على عدم التفاهم الداخلي للعرب كوسيلة لتحقيق أهدافهم، وكيف أن هذا التفاهم يمكن أن يكون عرقلة لمخططاتهم الاستعمارية.

ومن الصفات الرومانية التي أثارت إعجاب الجاحظ واستغرابه في نفس هو قدرة الروم السريعة على التأقلم مع المحيط الذي وجدو به حتى ولو لم يكن لهم بيه سابق عد (ومن العجب أن رجال الروم. تصلح في البدو مع الإبل ، ودخول الإبل بلاد الروم هو هلاكها)[145] فنجده يتعجب من كيفية تأقلم الروم والذين كانوا أهل حضر منذ الأزل مع أجواء البدو وحياتهم بل وأكثر من ذلك أنهم برعوا في كل ما يتعلق بالإبل برغم من عدم وجودها في بيئتهم الأصلية حتى أن أغلب أصحاب الإبل كانوا يتخذونهم كحداة لبراعتهم في هذا المجال (وأصحاب الإبل يرغبون في اتخاذ النوبة والبربر والروم للإبل ؛ يرون أنهم يصلحون على معايشها ، وتصلح على قيامهم عليها)[146].

أما من حيث العادات فمع أن الجاحظ لم يورد الكثير من عادات الروم إلا أنه من أغرب العادات التي أوردها هو اعتماد الرومان على مراقبة حركات الخنزير لمعرفة الوقت وجاء ذلك في معرض حديثه عن الوقت وكيفية معرفته وطرق الاستدلال واختلافها بين

---

144 الحيوان ج ٢ ص ١٧٢-١٧٣
145 الحيوان ج٣ ص٤٣٤
146 نفس المرجع السابق

الأمم والذي قال فيه : وملوكنا وعلماؤنا يستعملون بالنهار الأسطرلابات[147] وبالليل البنكامات[148] ، ولهم بالنهار سوى الأسطرلابات خطوط وظل يعرفون به ما مضى من النهار وما بقى . ورأيناهم يتفقدون المطالع والمجاري . ورأينا أصحاب البساتين و كل من كان بقرب الرياض ، يعرفون ذلك بريح الأزهار . ورأينا الرُّومَ وَنَصارى القرى يعرفون ذلك بحركات الخنازير وببكورها وغدوها و أصواتها [149]

فوجه الغرابة هنا أن الروم مع كل ما شهدوه من حضارة وقوة ومع نقلهم لمعظم ما وصل إليه اليونان في حضارتهم اعتمدوا الربط بين حركات الخنازير والزمن والذي يعكس فهمًا تقليديًا للوقت والتقويم وبالتالي، يظهر كيف أن الروم كانوا يعتمدون على المراقبة الدقيقة لحركات الحيوانات المحلية لفهم الوقت والزمن بدلاً من الأساليب الحديثة لقياس الزمن.

ونجد أيضا هذا النهج التقليدي والارتباط العميق بالطبيعة، والذي يعبر عن تأثير البيئة المحلية على ثقافة وتقاليد المجتمعات الرومية جليا في وصفهم للصفات التي يجب أن يتحلى بها المحارب قالوا في وصف الرجل : له وثبة الأسد، وروغان الثعلب ، وانسلاب الذئب وجمع الذرة[150] وبكور الخنزير .[151]

[147] آلة فلكية قديمة تستخدم لتحديد مواقع الأجرام السماوية وكذالك تحديد الوقت
[148] وهو علم تتبين منه كيفية إجاد الآلات المقدرة للزمان.
[149] الحيوان ج٢ ص 294
[150] وهو نوع من النمل الأحمر الصغير
[151] الحيوان ج٢ ص ٢٩٥

• الصورة الإيجابية

لم ينطلق الجاحظ خلال تقديمه للآخر في كتاب الحيوان من رؤية ذاتية متعصبة لـ (الأنا) التي تنفي أي وجود متميز لهذا الآخر، فتحصر الحضارة في فلكها، وإنما وجدناه يقرّ، وهو المثقف الموسوعي أنه كان لبعض الأمم المتحضرة فضل كبير على أمته العربية، فهم السبب الرئيسي في ما وصلت له الدولة الإسلامية من تقدم وازدهار سواء في الجانب الثقافي والعلمي والحضاري أم في الجانب العسكري وفي ما يلي سنحاول أ، نذكر أبرز الأمم التي أقر لها الجاحظ بالفضل الكبير و أشاد بها إعجابا مقدما لها صورة تطغى عليها الإيجابية

▪ صورة اليونان

تلقت الثقافة اليونانية اهتمامًا ملحوظًا في عصور الخلفاء الراشدين والأمويين، إلا أن فترة حكم الخليفة هارون الرشيد برزت كفترة ذروة في هذا الاهتمام، ويعزى ذلك جزئيًا إلى جهود وزيره المثقّف، جعفر البرمكي. كان البرمكي من بين أبرز المشجعين للترجمة من اليونانية إلى العربية، حيث نفذ العديد من الترجمات الأدبية والفلسفية والعلمية، مما ساهم بشكل كبير في انتشار الفكر والثقافة اليونانية بشكل واسع في العالم العربي

لذا فليس من المستغرب أن يظهر تأثير هذه الثقافة أو الحضارة على الكتاب وعلى رأسهم الجاحظ الذي لم يترك كبيرة ولا صغيرة في عصره إلا وأحصها وعلى الرغم من أن العرب لم يكن لهم احتكاك مباشر مع اليونانيون إلا أن ترجمة الثقافة اليونانية أثرت في الحياة الثقافة العربية من كل نواحيها و يبدو هذا التأثير جليا في ما نلمسه في كتاب الحيوان من تأثر الجاحظ بأرسطو طاليس حيث أنه اتخذ من كتاب هذا الأخير الذي يحمل نفس العنوان مرجعا له في كتابه وقد صرح بذلك بنفسه مدعيا أنه اعتمد في كتابه على

خمس مراجع أساسية ثالثها كاتب الحيوان لأرسطو طاليس بعد القرآن والحديث كما نجده في يحيلنا في يعد ما جاء به في كاتب الحيوان يحيلنا إلى حيوان أرسطو ومن ذلك قوله (قال صاحب المنطق (في كتابه الذى يقال له الحيوان ، في موضع. ذكر فيه الأسد) قال : إذا ضرب الأسد بمخالبه ، رأيت موضع آثار مخالبه في أقدار شرط الحجام أو أزيد قليلا ، إلا أنه من داخل أوسع خرزاً ، كأنَّ الجلد ينضم على سم مخالبه (، فيأكل ما هنالك . فأما عضته فإنَّ دواءها دواء عضة الكلب) [152]

وعلى هذا الأساس يمكننا القول أن أول ما يدل القارئ على حضور الأمة اليونانيّة في حيوان الجاحظ هو تثاقفه العميق مع أرسطو أو صاحب المنطق كما سماه أبو عثمان ذلك التثاقف الذي نلمسه قس عشرا النصوص التي نقلها الجاحظ عن أرسطو مثل نقله لكيفية علاج الكلاب لنفسها (وزعم صاحب المنطق أن الكلاب إذا كان في أجوافها دود ، أكلت سنبل القمح فتبرأ، وزعم أن الكلاب تمرض فتأتى حشيشة تعرفها بعينها ، فتأكل منها فتبراً) [153]

وبرغم من تأثر الجاحظ الكبير الذي لا يمكن للعين ان تخطاه بأرسطو وما جاء به حيوانه إلا أنه لم يقف أمام هذا الكتاب موقف المقتبس، أو الناقل الحرفي وإنما أنطلق كعادته كمعتزلي من مبدأ الشك المؤدي إلى اليقين وعلى هذا الأساس أخضع آراء أرسطو للبحث والتحليل والتجربة والاستفسار فتوصل إلى نتائج وآراء مخالفة للتي جاءت في كتاب أرسطو، فلم يترك الجاحظ من آراء أرسطو إلا وتكلم عنه وعرضه على الحجة من أمثلة ذلك استغرابه من بعض أراء أرسطو مثل ما ذكره عن الثور "وقد ذكر صاحب المنطق أنه قد أبصر ثوراً وثب بعد أن حصي فترا على بقرة فأحبلها". فنجد الجاحظ يعقب على ذلك مستنكرا " ولم يُحك هذا عن معاينة والصدور تضيق بالرد على أصحاب النظر، وتضيق بتصديق هذا الشكل".[154]

---

[152] الحيوان ج٢ ص٥٥
[153] الحيوان ج٢ ص٥٥
[154] الحيوان ج٥ ص ٥٠٣

وعلى هذا الأساس يتفاوت موقف الجاحظ تجاه بعض الآراء التي جاء بها أرسطو و التي أثارت ارتيابه بين مفكر أو موازن أو متردد عن إعلان الحكم الصريح ، فالجاحظ قبل كل شيء كاتب يعرف أن للشك حدودا ودرجات, وقد يمنعك بعضها من بلوغ الغاية العلمية. وكذلك يدرك قيمة ما يبذله الآخر من جهد فيما يكتب حتى إذا لم يستطع أن يصدق, فإنه لا يواجه هذا الغير بالتكذيب الصريح لا لأن ذلك من أدب العلماء فحسب, ولكن لأن التعامل مع مفكر عظيم مثل أرسطو يقتضي أسلوبا مناسبا. فهو حين يشك في أمر من الأمور التي أوردها أرسطو فإنه يلتمس له العذر فيرد ذلك إلى سوء نقل المترجمين تارة أو لأنهم لم يكونوا على مستوى علم المنقول منه تارة أخرى.

ومن أمثلة ذلك شكه في ما قاله أسطوا في حديثه عن عداوة الثعلب والزرق والذي عزاه ألا خطأ في الترجمة لأنه لا يصح عقليا بنسبة له (ولا أعرف هذا من قول صاحب المنطق ؛ لأن الثعلب لا يجوز أن يُعَادِي مِن بين أحرار الطير وجوارحها الزرق وحده ، وغير الزُّرَّق آكل اللحم . وإن كان سبب عداوته له اجتماعهما على أكل اللحم، فليبغض العقاب من الطير، والذئب من ذوات الأربع؛ فإنها آكل للحم. والثعلبُ إلى أَنْ يحسد ما هو [كذلك] أقرب، وأولى في القياس ، فلو زعم أنه يَعْمُ أَكَلَة اللحم بالعداوة ، حتى يُعطى الزرق من ذلك نصيبه ، كان ذلك أجوز .ولعل المترجم قد أساء في الإخبار عنه) [155]

ومع هذا التفاوت, في موقف الجاحظ يبقى هدفه الرئيسي الخاص بحب الاطلاع وطلب المعرفة, والبحث عن الحقيقة, ذلك لأن الجاحظ لم يكن مجرد (ناقل) لا يهتم بالنصوص التي ينقلها, وإنما كان في الأصل مبدعاً له شخصيته الفريدة, وذوقه الفني ومن هنا جاء كتابه عن الحيوان محاولة للجمع والتمحيص, واتخاذ المواقف النقدية الإيجابية تجاه المادة التي توافرت لديه كما يضاف إلى ذلك محاولته في تقريب كل ما ينقله عن المراجع المختلفة ومنها كتاب أرسطو إلى ثقافة عصره, حتى يصبغ هذه المادة بطابع الثقافة العربية ويمنحها حيوية خاصة تجعلها ذات أهمية في زمانه وما بعد زمانه.

155155 الحيوان ج٢ ص ٥٢

و على هذا الأساس من الفهم الواعي لحقيقة ما يصنع, يرجع الجاحظ إلى كتاب الحيوان لأرسطو, رجوعا علميا أمينا, حتى أن د. وديعة طه النجم ترصد منقولات الجاحظ عن أرسطو في ثبت علمي دقيق فتكون منقولاته في مجلده الأول ثلاث فقرات, وفي مجلده الثاني عشرين فقرة, وفي الثالث واحدة وعشرين فقرة, وفي الرابع تسع عشرة فقرة, وفي الخامس سبع فقرات, وفي السابع سبع فقرات.. و ذلك في نقل حرفي أو بتصرف وبالمثل تقدم ثبتا علميا آخر للنصوص التي نقلها عن أرسطو محرفة أو مختلفة اختلافا واضحا.[156]

وعلى كل حال لم تقصر أخبار اليونان في كتاب الحيوان على ما نقله عن أرسطو من علم ومعرفة فمع شحاحة ما وجدناه عن الأمة اليونانية في هذا الكتاب والتي ربما تعود كما أسلفنا إلى عدم مخالطة الجاحظ لهم اجتماعيا على خلاف غيرهم من الأمم التي ذكرنا سابقا غير أنه لم يتجاهلهم كليا إذ ان القارء المتتبع لهذا الكتاب يلتمس فيه بعد الشذرات أو على الأصح بعض المعلومات المتطايرة التي قد تعظيه ولو صورة بسيطة عن نظرة الجاحظ و التي غلب عليها الإعجاب بهذه الأمة وما أنتجتها فتجده تارة يورد بعض الحكم التي جاء بها هؤلاء "وقيل البطليموس : أي أمور الدنيا أعجب ؟ قال : بَدَن الفلك. وقال مرة أخرى : الضياء " [157]

وتارة يروي بعض النوادر والتي ظاهرها للتسلية وباطنها لتعلم والاتعاظ ومن أمثلة ذلك ما يرويه عن ديسيمزس والذي خصص فقرة كاملة لنوادره ونذكر منها نقله عنه انه ذات مرة بغى عليه رجل فأسمعه كلاما غليظا وفحش عليه بالقول فتحلم عنه فقيل له ما منعك من مكافأته وهو لك معرض ؟ قال : أرأيت لو رمحك حمار أكنت تريحه ؟ قال : لا . قال : فإن ينبح عليك كلب تنبح عليه ؟ قال : لا ، قال : فإنَّ السفيه إما أن يكون حماراً ، وإما أن يكون كلبا ؛ لأنه لا يخلو من شرارة تكون فيه أو جهل ، وما أكثر ما يجتمعان.[158]

---

[156] موقع العربي مقالة بعنوان بين الحيوان بين أرسطو و الجاحظ العدد 537

[157] الحيوان ج٧ ص ٢٠٣

[158] الحيوان ج ١ ص ٢٩٠

أما من حيث الجانب الثقافي فنجده يقارن بين الثقافة اليونانية والتي اتسمت بالموسوعية وشملت جل مجالات المعرفة إ، لم تكن كلها والثقافة العربية التي اقتصرت في الجاهلة على الشعر الذي و إن كان هو مدونة العرب الناقلة لأخبارهم وعلوهم فإنه لا يرقى لما جاء به اليونان في كتبهم لا من حيث المادة العلمية ولا الأسبقية الزمنية و في هذا يقول الجاحظ (وأما الشعر فحديث الميلاد ، صغير السن ، أول من نهج سبيله ، وسهل الطريق إليه : امرؤ القيس بن حجر ، ومُهلهل بن ربيعة . وكُتُبُ أرسطاطليس ، ومعلمه أفلاطون ، ثم بطليموس، و ديمقراطس ، وفلان وفلان ، قبل بدء الشعر بالدهور قبل الدهور، والأحقاب قبل الأحقاب)[159]

أما من الحيث النظام الاجتماعي والعادات والتقاليد فلم نجد من هذه المظاهر في كتاب الحيوان إلا ما أورده الجاحظ من نظام التوريث عند الفلاسفة اليونان الذ أشاد به فنقله نقل المعجب وربما المؤيد وذلك قوله: " قالوا: وكانت فلاسفة اليونان، تورث البنات العين، وتورث البنين الدين: وكانت توصل العجز بالكفاية، والمؤونة بالكلفة، وكانت تقول: لا تورثوا الابن من المال، إلا ما يكون عونا له على طلب المال، واغدوه بحلاوة العلم، واطبعوه على تعظيم الحكمة، ليصير جمع العلم أغلب عليه من جمع المال، وليرى أنه العدة والعتاد، وإنه أكرم مستفاد . وكانوا يقولون: لا تورثوا الابن من المال إلا ما يسد الخلة، ويكون له عونا على درك الفضول، إن كان لا بد من الفضول؛ فإنه إن كان فاسدا زادت تلك الفضول في فساده، وإن كان صالحا كان فيما أورثتموه من العلم وبقّيتم له من الكفاية، ما يكسبه الحال، فإن الحال أفضل من المال، ولأن المال لم يزل تابعا للحال، وقد لا يتبع الحال المال. وصاحب الفضول بعرض فساد، وعلى شفا إضاعة، مع تمام الحنكة، واجتماع القوة، فما ظنكم بها مع غرارة الحداثة، وسوء الاعتبار، وقلة التجربة [160]

ومن هنا يمكننا القول أن صورة الأمة اليونانية في كتاب الحيوان اقتصرت على المجال الثقافي والعلمي وجاء ذلك كنتيجة حتمية لعدم اختلاط الجاحظ اجتماعيا بهذه الأم فهو لا

[159] الحيوان ج١ ص ٧٤
[160] الحيوان ج١ ص 98

يعلم عنها إلا ما جاء في الكتب إذ لم يكن للعرب حدود جغرافية معها ولم تكن هناك علاقات تجارية حتى أن جلم الكتب المنقولة عن اليونان إنما نقلت من خلال الرومان أو الفرس مع ذلك لا يحفي على القارء عجاب الجاحظ الشديد بهذه الأمة التي بلغت ما بلغت من علم ومعرفة وتقدم في دهر لم يكن حتي للشعر العربي وجود.

- **صورة الهند**

يعتبر الهنود من أبرز الأقوام الذين ظهرت صورتهم جلية في هذا الكتاب إذ تحدث الجاحظ عن الهنود، باعتبارهم أحد عناصر المكونة للمجتمع الإسلامي في ذلك الوقت كماء يعود لهم الفضل في جزء كبير ن الإزهار الذي شهدته الحضارة الإسلامية حينها ، لذا فليس من المستغرب أن تكون حضارتهم موضوعا لكتابات الجاحظ الذي تناول بالدراسة المجتمع العباسي بكل فئاته التي يعد الهنود من أبرزها لذا ليس من المستغرب دراسة الجاحظ للمؤثرات الهندية في الفكر العربي في كثير من مؤلفاته أما في كتابه الحيوان فنجده يصف لنا الحضارة الهندية في كل تفاصيلها سواء من حيث البيئة والطبيعة أو العادات والمجتمع بل وحتي انه يذكر مالها من علوم وثقافة فقد اشتهرت كما أوضح الجاحظ: بالحساب وعلم النجوم، وأسرار الطب والخرط و النجر ، والتصاوير، والصناعات الكثيرة العجيبة.

فمثلا على الصعيد الثقافي يطلع الجاحظ القارئ على الدور الكبير الذي لعبه الهنود في الرياضيات وتأثر الحضارة العربية الكبير بهم من أقرب الامثلة على ذلك اعترافه للأمة الهندية بسبقها في استخدام الأرقام ونقل العرب ذلك عنها : (ولولا خطوط الهند لضاع من الحساب الكثير والبسيط، ولبطلات معرفة التضاعيف، ولعدموا الإحاطة بالبوارات وبوارات البواراتو لو أدركوا ذلك لما أدركوه إلا بعد أن تغلظ المؤونة، وتنتقض المئة).[161]

ولم تقتصر مساهمات الهنود العلمية على ذلك بل وتعدته إلي الكثر من المجالات العلمية المتنوعة والمشعبة فمثلا في مجال الطب نجده ينقل عن الهنود تحليلهم للكيفية التي يقتل بها السم والجاحظ كعادته يعرض الرأي ويناقشه ثم يورد ما يحتمل أن يكون من تعليقات على هذا التعليل "والسم يقتل بالكم والكيف والجنس والكم المقدار والكيف

[161] الحيوان ج١ ص 46

الحد. والجنس عين الجوهر وذاته. وتزعم الهند أن السم أنها يقتل بالغرابة، وإن كل شيء غريب خالط جوف حيوان قتله "[162]

وهكذا مضى الجاحظ يتحدث في كتابه عن الأمة الهندية ويكشف عن أسرار تلك الأمة في كثير مما نافست فيه غيرها أو ما كان لها فيه بدأ القول والتعليل مثل الدراسات اللغوية بشكل عام وعلم الأصوات بشكل خاص وتزعم الهند أن سبب ما له كدر كلام الناس واختلف صور ألفاظهم، ومخارج كلامهم ومقادير أصواتهم في اللين والشدة وفي المد والقطع كثرة حاجاتهم ولكثر حاجاتهم كثرت خواطرهم وتصاريف الفاظهم، واتسعت على قدر اتساع معرفته [163].

والجاحظ هنا بما ينقله عن ثقافة الأمة الهندية يسبق ما يقول به منظرو اللغة المعاصرون في تطور اللغة واتساعها فاللغة كالكائن الحي، تنمو وتتطور من حيث مفرداتها وتراكيبها وصيغها وأساليبها، تبعا لتطور الناطقين بها فكريا وحضاريا وتصبح اللغة من الفخامة والسعة والتشعب بحيث لا يستطيع أحد الإحاطة بها، وبكل ما تشتمل عليه من كلمات وصيغ وتراكيب .!

ورغم ما كان للهنود من أسبقية في بعض المجلات العلمية والريادة فيها إلا ان الجاحظ لم يجد مصدرا معروفا لينسب إليه هذه العلوم فيعلق على علومهم بقوله: " بالرغم ما اتصفوا به من علم ومعرفة ومعان مدونة وكتب مخلدة، إلا إنها لم تنسب إلى رجل معروف ولا عالم موصوف، فهي عبارة عن كتب متوارثة وآداب موجودة على وجه الدهر ومر الزمان.[164]

[162] الحيوان ج4 ص 319
[163] الحيوان ج٤ ص ٢١-٢٢
[164] البيان والتبيين ج٣ ص٢٧

ولم يكتفي الجاحظ بتصوير الجانب الثقافي الهندي فقط بل تناول في دراسته جميع جوانب هذه الحضارة التي برغم من بعدها الجغرافي واختلافها اللغوي عن العرب لم يجد الجاحظ في دراسته لها ذلك الفرق الشاسع بينها وبين حضارته العربية من حيث العادة والتقاليد وصرح بذلك قائلا والهند توافق العرب في كل شيء إلا في ختان النساء والرجال [165]

فها هو هنا يصور لنا تلك الثروة الحيوانية المتنوعة والساحرة التي تزخر بها بلاد الهند معددا بعض الحيوانات النادرة التي اختص الله بها بعض البلاد دون الأخرى (والفيل والببر، والطاووس والببغاء ، والدجاج السندي ، والكركدن، مما خص الله به الهند . [166]

ويستدل على قوله هذ ببعض الأبيات الشعرية فيقول وقد عدد ذلك مطيع بن إياس حين خاطب جارية له [كانت] تسمى (روقة) ، فقال :

روق أي روق كيف فيك أقول سادسنا دوني و أرمائيل

وبعيد مَنْ بَيْنَهُ حيثما كا ن وبين الحبيب قندابيل

روق يا روق او ترين تحلى ببلاد معروفها مجهول

ببلاد بها تبيض الطواوي س من وفيها يُزاوج الزندبيل

وبها الببغاء والصفر والعو دُلهُ فِي ذَرَى الأراك مَقِيلُ

والجموع العرجاء والأيل الأقـ رَن والليث في الغياض النُّسُولُ

ويمضي مسهبا في نفس الموضوع حتي يذكر لنا قول أبو الأصلع الهندي ، مفاخرا بالهند وما أخرجت بلاد الهند :

لقد يعذلني صحبي وما ذلك بالأمثل

---

[165] الحيوان ج١ ص ٢٩

[166] الحيوان ج٧ص١٧٠

وفي مدحتي الهند وسهم الهند في المقْتَ

وفيه الساج والعاج وفيه الفيل والدَّغْفَل

وإن التوتيا فيه كمثل الجبل الأطول

وفيه الدار صيني وفيه ينبت الْفُلْفُل[167]

ثم يعود الجاحظ ليذكر لنا أغرب عادات الهند وما تميزت به عن سواها من البلدان وما اشتركت فيه مع غيرها كاشتراكها والفرس في تعظيم الفيل وإن اختلفت الطريقة مثلا نجد أن الهند يعاملون الفيل كما يعامل العرب الحمار والجمل فيستخدمونه في مهام اليومية مثل التنقل وحمل الأثقال وغيرها "وزعم لي بعض البحريين أنها بالهند تكون نقالة وعوامل كعوامل البقر والإبل ، والنقالة التي تكون في المكلاء والسوق . وأنها تذل لذلك] وتسامح وتطاوع ، وأن [لها] غلات من هذا الوجه وزعم لي أن أحد هذه الفيلة التي رأيناها بسر من رأى ، أنه كان القصار بأرض سندان ، يحمل عليه الثياب إلى الموضع الذي يغسلها فيه، ولا أعلمه إلا الفيل الذي بعث به ماهان أو زكريا بن عطية"[168] .

كما أنهم تفوقوا مع الفرس في هذا المجل فبل أن يدربوا الفيلة على السخود او الدوس على العامة عملوا على تدريبها لتكون لهم خير معونة في الحرب فيقول الجاحظ أنهم استخدموا السيوف في حروبهم، عن طريق ربطها في خراطيم الفيلة لتساعدهم على القتال ، وقال صفوان بن صفوان الأنصاري ، وكان عند داود بن يزيد بالمولتان : الهند تؤدب الفيلة بأنواع من التأديب ، وبضروب من التقويم ، فمنها آداب الحروب ، حتى ربما ربطوا السيف [الهدام] الرغيب ، الشديد المتن ، الحديد الغرب ، الشام الطول ، الطويل

[167] الحيوان ج٧ ص ١٧١
[168] الحيوان ج٧ ٢٣١

السيلان) ، في طرف خرطوم الفيل ، وعلموه كيف يضرب به قدما ، يميناً وشمالا، وكيف يرفعه بخرطومه حتى يكون فوق رؤوس الفيالين القعود على ظهره [169]

وربما بسبب هذه الأساليب الغريبة والمختلفة راي الجاحظ عندما تحدث عن صفاتهم، إنهم اتصفوا | بالمكر والخديعة والحيل للقضاء على اعدائهم، فهم يميلون مع عدوهم كما يريد ليرى نفسه بأنه المنتصر عليهم، ثم يقومون بالقضاء عليه.

وكما عودنا الجاحظ في كتابه هذا وفي أغلب كتبه أنه لا يكتفي بنقل الجانب واحد لأمة من الأمم فدائما ما يتأرجح في كتاباته ما بين السلبية والإيجابية وربما هذا ما تحتمه عليه الأمانة العلمة والموضوعية التي قل ما يخرج عنها فبرغم ما صوره عن الهند من علوم وثقافة يعود ليعطينا عنها صورة أخرى او بالأحرى يعزز ويؤيد صورة طالما وجت في الذاكرة الثقافية العربية عن الهنود وهي انشغالهم بالأعمال السفلية من سحر وشعوذة غيرها وريادتهم في هذا المجال والتي عزيها الجاحظ إلي قوة شياطينهم وعظمتهم قال : وأصحاب الرقى والأخذ والعزائم ، والسحر ، والشعبذة ، يزعمون أن العدد والقوة في الجن والشياطين النازلة الشام والهند ،وأن عظيم شياطين الهند يقال له : تتكوير ، وعظيم شياطين الشام يقال له : درکاذاب [170]

ومن الصور السلبية التي نقلها عن النهد أيضا أنها وبرغم مما حظاها الله به من جمال الطبيعة وسحر المناظر فإن فكذلك ابتلاها بعفن التربة وتلوث الهواء ولذلك كثر الذباب فيها بشكل خيالي فيقول في ذلك فأما سكان بلاد الهند فإنهم لا يطبخون قدرًا ، ولا يعملون حلوى ولا يكادون يأكلون إلا ليلاً ؛ لما يتهافت من الذبان في طعامهم . وهذا يدل على عفن التربة ولحن الهواء[171]

[169] الحيوان ج٧ ١١٤
[170] الحيوان ج ٦ ص ٢٣٢
[171] الحيوان ج ٣ ص ٣٢٨

- **صورة الأتراك**

لقد كان للجاحظ حظٌ عظيم من الثقافة التركية التي تعمق بها وبلغ إلى حد مكنه من تأليف رسالة في مناقب الترك تعطي فكرة كافية عن سعة صدر الجاحظ وتبحره بثقافة الأتراك واستقائها من منابعها الأصلية، وخصوصا بعد انتقاله إلى بغداد و والتي يمكن القول أن الجاحظ وجد فيها جواً مساعداً للتوسع في ثقافة الترك والتعمق فيها وخاصة إذا ما عرفنا أن بغداد كانت في ذاك العصر تعج بالأتراك، وبهذا أمكن له سماع قصصهم ومناقبهم حينا من الأتراك، وحينا من الرجال الذين حاربوا الأتراك أثناء فتح بلادهم، فتهيأت له فرصة جمع محاسنهم وفضائلهم في رسالة بأسلوبه الخاص أعطت نمطا خاصا على مر الزمان

ومن المستغرب أننا لا نجد لازدواجية الجاحظ التي عهدناها في كتابته عن الامم الأخرى وجود ففي حديثه عن هذا العنصر الذي احتل جزءاً كبيرا من حياة الفترة العباسية وتاريخهم، فإنه لا يظهر سوى أعجابه بشجاعتهم وبطولاتهم فيظهرهم في صورت الفرسان الشجعان الذين خلصوا الأمة العربية من جور الفرس وفسادهم فنجده مثلا عندما يتحدث عن الفروسية والشجاعة لا يجد أفضلا منهم ليجعله غدوة يحتذى بها ويضرب بها المثل كنوع من المبالغة ونتلمس ذلك في قوله "ويعرض له الصبر على الركوب ، والقوة على كثرة الركض حتى يجاوز في ذلك رجال الأتراك"[172]

كما نجده في موضع آخر يشد بنشاطهم الفريد والذي يرى أن الله اختصهم به دون غيرهم من الأمم ويضرب في ذلك مثلا فيقول "وشبه آخر وشكل من ذلك، وذلك كاللذي يوجد عند الأتراك عند بلوغ المنزل بعد مسير الليل كله وبعض النهار ، فإن الناس في ذلك الوقت

[172] الحيوان ج١ ص ١٣٦

ليس لهم إلا أن يتمددوا ويقيدوا دواتهم . والتركي في ذلك الوقت إذا عاين ظبياً أو بعض الصيد ، ابتدأ الركض بمثل نشاطه قبل أن يسير ذلك السير [173]

ولم يقتصر إجاب الجاحظ الشديد بالعنصر التركي على كتاب الحيوان فقط وإنما دونه في أغلب كتبه فنجده في "البيان والتبيين"، يصفهم بأنهم شعب يتمتع بالشجاعة والقوة والجبروت، وأنهم يمتلكون مهارات حربية ممتازة

كما نجده في رسالته مناقب الترك يصفهم بأنهم قوم مباشرون لا يحبون "اللف والدوران" في تعاملهم مع بعضهم ومع الآخر، فيقول في ذلك : "الأتراك قوم لا يعرفون الملَق ولا الخلابة ولا النفاق ولا السعاية ولا التصنّع ولا النميمة ولا الرياء ولا البذخ على الأولياء، ولا البغي على الخلفاء، ولا يعرفون البدع ولم تُفسدهم الأهواء، ولا يستحلّون الأموال على التأوّل".[174]

لكن المسألة الوحيدة التي أخذها عليهم ، التي يمكن اعتبارها ميزة في ذات الوقت "الحنين إلى الأوطان، وحب التقلّب في البُلدان" ليس هذا بيدهم بل هي صفته جبلوا عليها في أرض الترك بحسب الجاحظ عيب كبير وهي أنها تصبغ كل دابة بصبغتها وتطبعها بأطباعها فما بالك بالبشر "وترى طباع بلاد الترك كيف تطبع الإبل والدواب وجميع ماشيتهم : من سبع وبهيمة ، على طبائعهم"[175]

وغم ما ينادي به الجاحظ من فضل للأتراك على العرب وحضارتهم فإننا لا نرى ذلك التأثير إلا في الجانب السياسي والعسكري بغض النظر عن إيجابية من عدمها فالأتراك كانوا أهلا بادية لا عهد لهم بالحضارة فقد عاشوا في بيئة بدائية ونتلمس ذلك في طريقة وصفهم لقادتهم وتشبيههم لهم بالحيوانات قال أبو الحسن : قال نصر بن سيار الليني : كان

[173] الحيوان ج ٣ ص ١٦١
[174] رسائل الجاحظ ج١ ص ٦٢
[175] الحيوان ج ٤ ص ٧١

عظماء الترك يقولون للقائد العظيم القيادة : لابد أن تكون فيه عشر خصال من أخلاق الحيوان : سخاء الديك ، وتحنن الدجاجة ، وقلب الأسد ، وحملة الخنزير وروغان

الثعلب ، وختل الذئب ، [وصبر الكلب على الجراحة ، وحذر الغراب ، وحراسة الكركي ، وهداية الحمام .[176]

الأمر الذي دفع بعض الباحثين إلى القول بأن هذا الإعجاب المبالغ فيه بالترك لم يكن عفويا ومن خلال اطلاعهم على حياة القارء ردوه إلى ثلاثة أسباب رئيسية السبب الأول هو كره الجاحظ للفرس وعدائه الشديد لهم وبما أن الترك كنوا العصى التي ضرب بها بنو عباس الفرس وحدو بها من نفوذهم وتحكمهم في الدولة لذا اختار الجاحظ صف الترك انطلاقا من مبدأ عدو عدوك صديق وكذلك محاولة لتقرب من الخلفاء العباسيون

وإظهاره لمساندته الدائمة لهم وفي كل قراراتهم وهذا ولا دليل أدل على ذلك من تاريخ كتابته لرسالته مناقب الترك .

السبب الثاني او الدافع الثاني هو دافع مادي بحت تمثل في طمعه في العطاء والهدايا في المقام الأول، فالترك الذين بدأ نجمهم يسطع في عهد المأمون والمعتصم كانوا قد أصبحوا بمرور الوقت وأصحاب الأموال والمناصب الكبرى في الدولة العباسية؛ بل إن بعض هؤلاء الأتراك بلغوا مكانة مرموقة في مناصب مدنية غير عسكرية، وبرز منهم عدد من الكُتّاب والأدباء مثل أبو يعقوب الخريمي، وإبراهيم بن عباس الصولي، والفتح بن خاقان التركي، وقد كان هؤلاء الأتراك يوسعون في عطاء الجاحظ و الإغداق عليه بالأموال والهدايا بذلك كان يبالغ في التودد لهم والتقرب منهم

اما السبب الثالث فهو طموح الجاحظ السياسي الجامح والذي جعله يتصور أنا الأتراك الذين تحكموا في كافة مفاصل الدولة يمكن أن يساعدوه في الوصول لحلمه وتحقيق ولو لجزء قليل من هذا الطموح الجامح الذي ذهب به إلى حد تمني الجلافة والحلم بها

[176] الحيوان ج٢ ص ٣٥٣-٣٥٤

الخاتمة

ومن هنا يمكننا القول أنه ومن خلال تطوافنا بين صفحات كتاب الحيوان للجاحظ بحثا عن صورة الآخر في هذا الكتاب الذي كان مؤلفه قد خصصه وأعده للحديث عن الحيوان توصلنا إلى عدة نتائج سنحاول سردها على شكل نقاط فيما يلي:

- أن الجاحظ قدم لنا خير مثال على انفتاح المثقف العربي على الآخر فحاول برؤية غلبت عليها الموضوعية أن يتحدث عن هذه الأمم التي شاركت الأمة العربية
- في سير ركب الحضارة والثقافة مقدما صورة أدبية عن ثقافة هذه الأمم و عن أساليبهم الحياتية وعن نظمهم في الحكم وفي السياسة، وعدلهم، وجورهم، وعن علمهم، وصفاتهم، وأخلاقهم، وأساليب عيشهم. معرجا خلال ذلك على ما قدموه وأضافوهّ للثقافة العربية ؛ وبذلك فإننا نشهد ومن خلال كتاب الحيوان ذلك التمازج الثقافي العظيم الذي شهده المجتمع العباسي على كافة الأصعدة والذي كان لبنة من اللبنات المؤسِّسة لإحدى أعظم الحضارات التي سادت العالم في مرحلة تاريخية كانت هي الأكثر ازدهارا في التاريخ الإسلامي
- أن الجاحظ لم يكن حرا في كتاباته حرية مطلقة ؛وهو ما ولد نوع من التضاد والتعارض بين آرائه في كتبه المختلفة ؛ مثل ما نجده من اختلاف بين صورة الزنوج في كتاب الحيوان وصورتهم في فضل البيضان على السودان وقد أثارت هذه الازدواجية حفيظة النقاد قديما وحديثا فردها بعضهم لأسباب سياسية بحته وهي رغبة الجاحظ في تملق أصحاب المراكز العليا في السلطة وعليه فإن بعض هذه الكتب كتبت لتحقيق غايات سياسية محضة وكما أن الجاحظ لم يكتبها إلا اتباع للأوامر العليا .
- أن الجانب السياسي لم يكن هو العامل الوحيد المؤثر على كتابات الجاحظ فبالرغم من أن الجاحظ سعى جاهد للتحلي بالموضوعية والحيادية إلى أنه وكغيره من أبناء عصره أثرت عليه مؤثرات عديدة ظهرت بشكل جلي في كتاباته منها ما هو

اجتماعي والذي تمثل في الصراع الموجود بين المتن والهامش أو بتعبير آخر صراع الغالب والذي تمثل في الأمة العربية المسيطرة والمغلوب المتمثل في الأمم الأخرى الراغبة في استعادة أمجادها السابقة والجاحظ كغيره من العرب تغلبت عليه حميته فجعلته في الغالب ينتصر لقومه على حساب الطرف الآخر ويبدو هذا جليا في تصويره للفرس حيث وصل الأمر به في مهاجمتهم إلى حد القول بأنهم بمعاداتهم للعرب فهم يعادون الإسلام ، ومنها ما هو شخصي والذي تمثل في رغبة الجاحظ في تحقيق أطماع ومآرب شخصية من خلال كتاباته ومن ذلك تملقه الواضح للترك الذين كانوا هم المتحكمون في منافذ القرار أنا ذاك وبالعودة لعلاقة الجاحظ بهم نجد أنهم كانوا يغدقونه بالعطايا والهبات فكان يتودد إليهم ليس فقط كطمع منه في كرمهم الجزيل وإنما رغبة منه في التعيين و الوصول إلى المراكز العليا المتحكمة في الدولة فمن يعرف أبا عثمان أو قرأ عنه لا بد أن يلاحظ طموحه السياسي الجامح و الذي وصل به إلى حد الطمع في الخلافة .

و عموما ورغم كل ما سبق لا يمكننا إنكار أن الجاحظ مثل هذه الأمم خير تمثيل وبين المواقع الثقافية التي أحتلتها كل أمة ودورها الحضاري في نهضة المجتمع الإسلامي ذاكرا خلال ذلك مثالب ومناقب كل أمة وهو الأمر الذي تطلبته منه الأمانة العلمية وإن كان تأثر بمجموعة من المؤثرات إلا نه لا يمكننا الإنكار أنه كان أقرب كتاب عصره للحيادة والموضوعية وأكثرهم رجوعا للحق واعترافا بالفضل لكل ذي فضل على العرب وما وصلوا إليه من تقدم.

- أن الجاحظ لم يقف من تراث هذه الأمم موقف المقتبس أو الناقل الحرفي المسلم بكل ما ينقل بل انطلق من مبدأ الشك المؤدي إلى اليقين وعلى هذا الأساس أخضع جميع ما توصل إليه من علوم الأمم الأخرى للبحث والتحليل والتجربة والاستفسار ليتوصل بذلك إلى نتائج وآراء مخالفة للتي جاؤوا بها أو متوافق معها في بعض الأحيان ، كان هذا نهجه ونهج غيره من أبناء عصره وهو ما أتاح لهم

الاستفادة القصوى من العلوم الدخيلة عليهم بل لم يقفوا عند ما وصل إليه غيرهم من الأمم بل عملوا عليه وطوروه على عكس ما يفعله المثقف العربي اليوم والذي ينظر إلى الدراسات الغربية كأمر مسلم به لا يمكن مناقشته فيكفيه شرفا ترجمتها أو الاستناد إليها كمرجع .

- أن الجاحظ لم يكن بالمستلهم الشره لكل ما جاء به الآخر من ثقافة وعلوم ؛ بل اتبع أسلوب انتقائيا قائما على اختيار ما يوافق فكره وحضارته كمسلم أولا و كعربي ثانيا محاولة منه لتكييف ما لا يوافق فكره ، وصبغِه بالصبغة العربية ، والابتعاد عن ما يؤثر تأثيرا سلبيا على القراء ، وهو الأسلوب نفسه الذي اتبعه الغرب فيما بعد أثناء ترجمتهم للمعارف العربية وذلك لتجنب فخ التبعية الثقافية الذي أوقعونا فيه دون أن ندري.

وبهذا، يظل كتاب الحيوان للجاحظ نموذجًا بارزًا للتفاعل الثقافي البنّاء بين الحضارات، وتوثيقًا لجهود مؤلفه الحثيثة في تقديم المعرفة بأسلوب يجمع بين العمق والإبداع ، وعلى الرغم من مرور القرون على تأليف هذا الكتاب ظل حتى يومنا هذا مرجعًا هامًا لفهم الحضارة العربية والإسلامية، ويبقى شاهدًا على تفرد العقل العربي وقدرته على التأقلم مع تنوع العلوم والمعارف .

الملحق

أ – ترجمة عن حياة الجاحظ

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب ابن فرازة الليثي الكناني بالولاء زعم بعض الرواة أن جده كان مولى لأبي القملس عمر بن فلع الكناني ولد في البصرة 776م نقلا عن موقع ويكبيديا وهو أمر لم نجد له تأكيد إذ أن كل من ترجمة له لم يذكر سنة ميلاديه إلا أنه هنالك رواية انفرد بها ياقوت الحمودي الذي نقل عن الجاحظ قوله أنه أكبر من أبي نواس بسنة إذ ولد هذا الأخير في آخر سنة 150 هجرية وولد هو في أولها أذا صحت هذه المقولة يكون الجاحظ قد عاش ما يزيد عن القرن من الزمان أذ توفي في 255هـ

لقب بالجاحظ وبالحدقي لجحوظ شديد في عينه و لدمامة خلقه وهو اللقب الذي لم يحبذه فكان يصد عن من يناديه بهذا اللقب و يجهد نفسه في أن يقرر في أذهان الناس أن أسمه عمرو وليس الجاحظ ورما لو لعم الجاحظ أن هذا اللقب سيكون رمزا من رموز العلم والمعرفة لتقبله

كان الجاحظ أحد أشهر علماء عصره أكثرهم تبحر في شتى ميادين العلم إذ كان الجاحظ

موسوعة معرفية متنقلة, وتعتبر كتبه دائرة معارف ما زالت تنهل منها الأجيال حتى اللحظة كتب في شتى المعارف والعلوم, كتب في علم الكلام والأدب والسياسة والتاريخ والأخلاق, والفلسفة , والنبات, والحيوان, والصناعة, والنساء, والسلطان, والجند, والقضاة, والولاة, والمعلمين واللصوص والامامة, والصناعة ، وغيرها من الموضوعات وترك إرثا علميا كبير تمثل في مكتبة ثرية بشتى أنواع المعرفة يصعب الإحاطة بها علما ، وصلنا منها الكثر والكثر لم يصلنا وإن كان البيان والتبيين وكتاب الحيوان والبخلاء والمحاسن والأضداد والرسائل أشهر هذه المؤلفات.

ب - **تعرف بكتاب الحيوان**

كتاب "الحيوان" للجاحظ هو أول كتاب شامل في علم الحيوان يُكتب باللغة العربية. يتناول الجاحظ في هذا الكتاب العرب وأحوالهم وعاداتهم وعلومهم، كما يناقش بعض مسائل الفقه والدين، ويقدم مختارات من الشعر العربي والأمثال والبيان ونقد الكلام. على عكس من سبقوه مثل الأصمعي وأبي عبيدة وابن الكلبي وابن الأعرابي والسجستاني، الذين كانوا يركزون على حيوان واحد وكان اهتمامهم لغويًا بحتًا، اهتم الجاحظ باللغة والشعر إلى جانب دراسة طبائع الحيوان وغرائزه وأحواله وعاداته. يُعد كتاب "الحيوان" من أضخم أعمال الجاحظ وأوسعها أفقًا، ويمثل صورة بارزة لثقافة العصر العباسي المتنوعة. يضم الكتاب معارف طبيعية ومسائل فقهية، ويتحدث عن الأقوام غير العربية والطوائف الدينية، والمسائل الجغرافية وخصائص البلدان، وتأثير البيئة على الحيوان والإنسان والنبات. كما يتناول الطب وأمراض الحيوان والإنسان، ويضم مفردات طبية نباتية وحيوانية ومعدنية، إلى جانب أبيات مختارة من الشعر العربي النادر، والأمثال والنوادر الطريفة.

قائمة المراجع والمصادر:

القرآن الكريم رواية ورش عن نافع نسخة إلكترونية

أولا : المصادر

1. ابن النديم الفهرست دار المعرفة للنشر لبنان بيروت ب.ت
2. ابن فاس معجم مقاييس اللغة تحقيق عبد السلام محمد هارون دار الفكر ببروت 1979
3. ابن قتيبة عيون الأخبار تحقيق منذر محمد سعيد أبو شعر المكتب الإسلامي بيروت ط1 2008
4. ابن منظور لسان العرب مجلد 10 ط 1 دار الصادر بيروت 1968
5. ابن عبد البر جامع بيان العلم وفضله تحقيق أبو الأشبال الزهري دار ابن الجوازي ب .ت
6. أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ،تحقيق محمود الأرناؤوط دار ابن كثير بيروت ، المجلد الأول ، ط 1 ج 2 1986
7. ابو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم مطبعة دار المعارف ط4 1965
8. ابو عثمان عمر ابن بحر البخلاء تحقيق العوامري و علي الجارم دار الكتب بيروت 1938
9. أبو عثمان عمر ابن بحر رسائل الجاحظ تحقيق محمد طه الحاجري دار النهضة العربية بيروت 1983
10. أبو فرج الأصفهاني المفردات في غريب القرآن تحقيق محمد سيد كيلاني بيروت دار المعرفة 1324 هـ
11. ابو منصور عبدالملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي ، لطائف المعارف تحقيق: ابراهيم الانباري دار الصادر ببيروت 2020
12. احمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي ، تأريخ اليعقوبي منشورات مكتبة الحيدرية النجف 1964
13. احمد بن يحيى بن جابر البلاذري ، انساب الاشراف ، تحقيق : عبدالعزيز الدوري الشركة المتحدة للتوزيع بيروت ،1978
14. الجرجاني معجم التعريفات تحقيق عبد الرحمان عميرة بيروت عالم الكتب 1407هـ
15. عمر بن بحر (الجاحظ) البيان والتبيين تحقيق حسن السندوبي مؤسسة هنداوي للنشر 2022
16. عمر بن بحر (الجاحظ) الحيوان ت عبد السلام محمد هارون ط2 دار إحياء التراث العربي 1967
17. فيروز ابادي القاموس المحيط تحقيق انس محمد الشامي و زكريا جابر دار الحديث القاهرة 2008

18.القاضي التنوخي , ابو علي محسن (384 هـ - 994م) , نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة , تحقيق : عبود الشالجي المحامي , بيروت – لبنان , دار صادر , (1391هـ - 1971م) ح2
19.محمد ابن علي ابن طباطبا الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية دار صادر ببيروت 1966
20.أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دار الآفاق الجديدة بيروت ، المجلد الأول ،ب.ت ب.ط ج 2

ثانيا: المراجع

1. ابراهيم سلمان الكروي ، المرجع في الحضارة العربية الاسلامية مركز الإسكندرية للكتاب 2008
2. أحمد أحمد بدوي ، البحتري ، دار المعارف، الطبعة الرابعة 2006.
3. احمد حسن محمود احمد ابراهيم الشريف العالم الإسلامي في العصر العباسي دار الفكر العربي دون .ت ، دون .ط.
4. امين احمد ضحى الإسلام مؤسسة هنداوي 2012
5. أنيس المقدسي أمراء الشعر العربي في العصر العباسي دار العلم للملايين بيروت ، 1975
6. برتراند رسل حكمة الغرب ترجمة د. فؤاد زكريا عالم المعرفة 1978
7. بروكلمان , تاريخ الشعوب الاسلامية , ترجمة : نبيه فارس ومنير البعلبكي , ط3 , بيروت – لبنان , دار العلم (1961م).
8. د. بشرى موسى صالح: الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، المركز الثقافي العربي- بيروت، ط-١ 1994
9. دانييل هنري باجو الأدب العام و المقارن ترجمة غسان السيد د. منشورات اتحاد كتاب العرب ط 1 1998
10. الدكتور محمد سهيل طقوش تاريخ الدولة لعباسية دار النفائس الطبعة السابعة 1430هـ 2009م
11. الدوري , عبدالعزيز , تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري , ط4 , بيروت – لبنان , ملركز دراسات الوحدة العربية , (1999م).
12. دي لا سي اوليري مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب ترجمة تمام حسان مكتبة الأنجلو المصرية 1950
13. السباعي بيومي ، الأدب وتاريخه بالمشرق ج 2، مكتبة الانجلو ، الطبعة الأولى ، 1953
14. سعيد عبد الفتاح عاشور سعيد زغلول عبد الحميد أحمد مختار عبادي، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العرب ،دار المعرفة الجامعية 1996
15. سعيد علوش مدارس الأدب المقارن دراسة منهجية مركز الثقافة العربي ط1 1987

16.شلبي أحمد موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية العصر العباسي الأول مكتبة النهضة المصرية القاهرة ط 2 1959
17.شوقي ضيف تاريخ الأدب العربي الجزء الثالث دار المعارف المصرية للنشر الطبعة الأولى1960-1995
18.شوقي ضيف تاريخ الأدب العربي الجزء الرابع دار ذوي القربى للنشر العراق الطبعة الثانية 1327 هـ
19.عباس محمود العقاد، ابن الرومي حياته من شعره مؤسسة الهنداوي 2014
20.عبد العزيز ابراهيم العمري الفتوح الإسلامية على مر العصور دار إشبيليا للنشر والتوزيع 1421 هـ.
21.عبداللطيف عبدالرحمن الراوي , المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع للهجرة , ط1, مكتبة النهضة , بغداد 1971.
22.عمر , فاروق , التاريخ الاسلامي وفكر القرن العشرين , ط1 , بيروت – لبنان , مؤسسة المطبوعات العربية ,(1400هـ - 1980 م) ,
23.فاروق عمر فوزي ، الخليفة المجاهد هارون الرشيد ،هيئة كتابة التأريخ طبعة الأولى 1989
24.فرانسوا مورو: البلاغة مدخل لدراسة الصور البيانية، ترجمة: محمد الولي وعائشة جرير، إفريقيا الشرق المغرب 2003
25.ماجدة حمود صورة الآخر في التراث العربي الدار العربية للعلوم بيروت 2010
26.محمد التونجي المعجم المفصل في الأدب دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط2 1999
27.محمد الداهي صورة الأنا والآخر في السرد رؤية للنشر والتوزيع مصر 2013
28.محمد سهيل طقوس تاريخ الدولة العباسية دار النفائس بيروت الطبعة 7 2009
29.محمد عبد المنعم خفاجي ، ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان دار الجيل بيروت 1991
30.محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة التاسعة 2008
31.مليحة رحمة الله الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع الهجريين مطبعة الزهراء بغداد 1970
32.ميشيل فوكو الإنهمام بالذات ترجمة محمد ازويتة دار إفريقيا الشرق للنشر المغرب 2013
33.يوسف ابن عبد البر النمري جامع بيان العلم وفضله ج2 دار اب الجوزي للنشر السعودي ط1 1994

ثالثا: الدوريات

1. إحسان ذنون عبد اللطيف الثامري، الخالفة العباسية في عهد الضعف بين فقدان السيادة ومحاولة استردادها مجلة جامعة طيبة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد ،1440 هـ.
2. احمد ابراهيم عيسى محمد بحث بعنوان التصوف في بغداد القرن السادس هجري مجلة الدراسات العربية كلية دار العلوم جامعة المينا
3. أغامير محمد، صورة الجزائر في مخيال الآخر)لدى الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر(، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الدولة في اللغة العربية وآدابها، تحت إشراف: محمد بن سعيد، كلية الآداب، اللغات والفنون، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة وهران، السنة الجامعية 2013
4. رنا سليمان الأوضاع الأقتصاية والاجتماعية في الدولة العباسية من خلال مصنفات الجاحظ رسالة ماجستير ١٩٩4م،
5. سامح كريم مقالة الحيوان بين أرسطو والجاحظ مجلة العربي العدد 536 الأصدار7 2003
6. سعيدة بشار محاضرات في علم الصورة
7. السيد غسان صورة الغرب في الأدب العربي مجلة جامعة دمشق للعلوم الإنسانية المجلد 24 العدد الثالث . الرابع 2008
8. عبد النبي ذاكر مقالة بعنوان أفق الصورولوجيا مجلة علامات النقد ع 51 2004
9. محمد شعبان أيوب مقالة بعنوان كيف رأى الجاحظ الأتراك في عصره موقع الجزيرة 2017
10. نوافل يونس الحمداني الصورولوجيا في السرد الروائي عند مهدي عيسى الصقر مجلة ديالي للبحوث الإنسانية الجلد 1 العدد 55 2012
11. هنري باجو الصورية ترجمة معجب الزهراني مجلة نوافذ ع 71 1999

الفهرس

المقدمـــــة .....أ

مـدخل إلى علم الصــورة 6

المبحث الأول تحديد المفاهيم.....7

العلم في اللغة.....7

العلم اصطلاحا.....7

مفهوم الصورة لغة :.....9

الصورة اصطلاحا:.....8

المبحث الثاني علم الصورة.....9

تعريف علم الصورة.....9

نشأة علم الصورة.....15

جدلية الأنا والآخر.....18

الانفتاح الحضاري في عصر الجاحظ 20

العصر العباسي:.....21

الحياة السياسية:.....24

الحياة الاجتماعية:.....32

الحياة الفكرية:.....37

أكثر الحضارات تأثيرا في عصر الجاحظ.....44

الحضارة الفارسية.....45

الحضارة اليونانية.....48

الحضارة الهندية.....51

تجليات صورة الآخر في كتاب الحيوان.....57

الصورة السلبية.....59

صورة الفرس.....60

صورة الزنوج.....68

صورة الروم.....72

الصورة الإيجابية.....76

صورة اليونان.....76

صورة الهند.....82

صورة الأتراك.....87

الخاتمة.....90

الملحق.....93

أ – **ترجمة عن حياة الجاحظ** 93
ب - **تعرف بكتاب الحيوان** 94
الملخص : ..... Error! Bookmark not defined.
قائمة المراجع والمصادر: 95
القرآن الكريم رواية ورش عن نافع نسخة إلكترونية 95
أولا : المصادر 95
ثانيا: المراجع 96
ثالثا: الدوريات 98

الملخص:

تتناول هذه الدراسة الصور النمطية، الإيجابية والسلبية التي يرسمها التراث العربي للآخر وذلك من خلال استنطاق كتاب الحيوان للجاحظ الذي حاولنا من خلاله دراسة الصورة الأدبية التي رسمها الجاحظ لستة من أقرب الشعوب الإسلامية إلى العرب، وأكثرهم امتزاجا بهم، وهم الفرس الترك اليونان الروم الهند والسودان آملين تعميقها وتوسيعها مستقبلا لتشمل الصين والحبشة والنوبة وغيرهم من الأقوام المسلمة.

وقد حاولنا من خلال هذه الدراسة الكشف عن مدى انفتاح المثقف العربي على الآخر وكيفية تعامله مع الاختلاف الثقافي .

Abstract:

This study deals with the positive and negative stereotypes that the Arab heritage draws on the foreign world through using and probing Al- Jahiz's book of animals which is helped us to study the figurative cultural representation for the sex closest Muslim peoples to the Arabs and the most associated to them, which they are The persians, Greece, Romans, India, and hoping its expanding in the future to reach China, Abyssinia, Nubia, and other muslim nation.

This study shows depth of Arab intellectuals' openness for the foreign world and its approach to deal with cultural difference.